من الحياة

اسم الكتاب: من الحياة

الموضوع: مجموعة قصصية

التأليف: د. مجدي سراج عبد المجيد الشال

مراجعة وإخراج فني: سالم عبد المعز سواح (عمرو سواح)

رقم الإيداع: 2021 / 30444

الترقيم الدولي: 978-977-835-284-9

الناشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر — Facebook



za7ma.kotab@gmail.com — Email

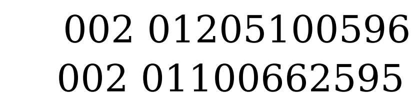


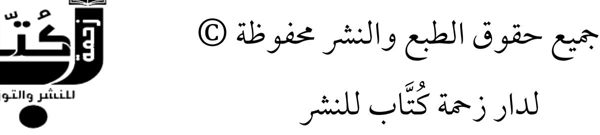


Tel

002 01205100596

002 01100662595



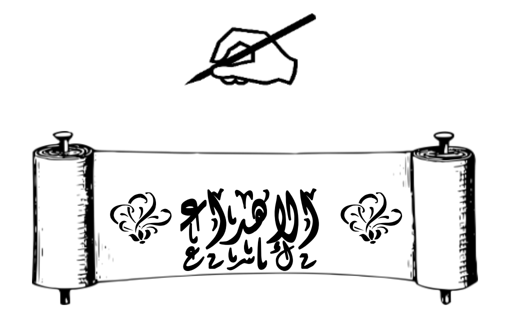


من الحياة

مجموعة قصصية

د. مجدي سراج عبد المجيد الشال

فهرس

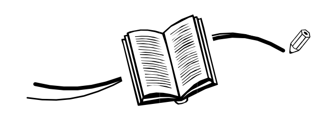


إلى روح كلّ مَن فقدناهم

إلى زوجتي وتوأم روحي وعمري الماضي والآتي

إلى أبنائي الأعزاء الذين ساندوني ودعموني بتوجيهاتهم ومنحوني الثقة.

إلى كل من أثنى عليّ أو انفرجت شفتاه عن أسنانٍ بيضاءَ لامعة.



المقدمة

في مطلع ثمانينيات القرن الماضي كنت طالبًا بكلية الصيدلة وفي محفل بهيج أشرف عليه ثلةٌ من الأساتذة مع اتحاد الطلاب.. وخلال تقديم الفقرة الأدبية وقف زميل لنا في زهو يلقي قصيدة شعرية كان قد نظمها وصوته الجهوري يدوي في أركان القاعة.. كان متأنقًا يرتدي بدلة وربطة عنق ويجيب بكل ثقة على أسئلة الحضور مدعيا حينذاك أنه من قراء الشاعر فاروق جويدة.. في تلك اللحظة تمخضت آمالي عن حلمٍ بسيطٍ طفق يعربد بمشاعري وتمنيت أن أرى لي قصة ممهورة بتوقيع عميد الكلية تشغل حيزا في مجلة الحائط المثبتة في جدران البهو أمام المدخل الرئيسي، يعرج عليها كل زائر ويقف أمامها يقرؤها بانبهار ويسأل عن صاحب القصة فأشير إليه من بعيد وقلبي وجل.. فأنا هكذا لا أحتمل مواقف المدح والثناء.

أحسست بعدها بقوة كامنة تدفعني نحو قراءة الأدب نثره وشعره والحرص على فهم قواعده رغم فشلي ذات مرة في اختبارٍ للغة العربية في الصف الأول الثانوي.

وكانت أول محاولة لي في كتابة الخواطر أو القصص القصيرة تجربة زميل لي قصها عليّ من باب الفضفضة وإزاحة ما في الصدر من هم.. وكنت أنصت له احتراما لمشاعره ولملكة سماعي الجيدة..

وبعد أن فضفض وأزاح ما به من هم وجدتني أسطر ما سمعته بعد صياغة أدبية على صفحات بيضاء وعقدت العزم على أن أفاجئه بها في اللقاء القادم ليكون شاهدًا على ميلاد تلك المحاولة.. ولعشوائية حياتنا في تلك الفترة حيث افتقاد الموارد وكثرة الأشقاء وانعدام الخصوصية لم يكن لي خزانة خاصة أحتفظ بداخلها بحاجياتي وأسراري.. لم يكن أمامي إلا أن رفعت مرتبة السرير ووضعت الأوراق على الألواح وأعدت المرتبة كما كانت.

ولكثرة النباشين.. فالغرفة بها ثلاثة أسرّة ويحج إليها كل من أراد أن يسترح هنيهة أو ينعم بقيلولة هادئة.. فعلت بالأوراق كما كنا نفعل بملابسنا ونحن صغار عندما نريدها شبه مكوية أو خالية من الكرمشة.

ولا مانع أن يعبث أي زائر للغرفة من أشقائي بما فوق السرير وتحته بحثا عن أي شيء يفقده أو قليل من النقود.. أو تلجأ شقيقتي لتغيير الملاءات وقلب المراتب في يوم النظافة العالمي..

بعد يومين عدت أبحث عن أوراقي فلم أعثر عليها.. فلم أعر الأمر اهتماما ومضيت لحال سبيلي ولم أتطرق مع صديقي بعد ذلك إلى تجربته التي مر بها خشية أن أنكأ الجرح الذي ربما أوشك أن يلتئم.

أتممت دراستي وانخرطت بسوق العمل... سوق الدواء والصيدليات ونسيت الحلم.

وكما يقال "الغربة حبلى بالمآسي والمحن ومن رحم المحن تولد المنح".. وفي العاصمة الرياض جاشت مشاعري وتفتقت عن خواطر وقصص وأبيات شعر أهديها لزملائي لمعرفة رأيهم فيثني ويمدح من تذوق ويريد أن يجامل.. وينقد ويتفلسف من يدعي فهم الأدب.. ويحقد ويثبط الهمة والعزيمة من في قلبه زيغ لم أبالِ بهؤلاء ولا هؤلاء.. وعقدت العزم على أن أحتفظ بما أكتبه لنفسي ولا أطلع عليه أحدًا وبات أصدقائي وزملائي الجدد لا يعرفون شيئًا عن الجانب الآخر لشخصيتي... أمزح وأمرح معهم وربما أستلهم من حديثهم فكرة أسطرها على صفحات الورق بعد صياغتها..

وكانت أول قصة لي وأحسست أنها من بنات أفكاري هي قصة زواجي وليلة الفرح (ليلة غنى فيها القمر) وكيف عمت الفرحة والبهجة أرجاء الدنيا وكأنني أرسلت كروت الدعوة إلى الدنيا والقمر والنجوم.. وتوالت كتاباتي وأستلهم أفكاري عبر اجترار الذاكرة إلى مرحلة الطفولة والشباب والقرية البار أهلها عرفانا بفضلها عليهم.. فقد

عاش أهلها طفولة هنيئة ينعمون بالحب وراحة البال رغم ضيق الحال.. ووسائل الترفيه التي كنا نلجأ إليها في المناسبات.. كما في قصة (المولد) وما بها من فولكلور شعبي.. و(الأراجوز).. وما كان لأفراح القرية من بهجة والأغاني التراثية كما في (فرح عزوز) وقصص أخرى عديدة تبرز جوانب الحزن والفرح والتكافل... وعرجنا إلى المدينة ومباهجها كما في قصة (في القطار) و(الفرح) و(الأعرج). وقصص أخرى عديدة.. ولكن ما أجزم به أن كل تلك القصص تجارب حقيقية عشتها سماعًا أو ممارسة.. وبعد أن أوشك الحلم على أن يكتمل وانتويت طرح القصص في كتاب ليصبح بين أيدي القراء.. ويتملكني الخوف... هل سيعجب القراء؟

أتمنى

د / مجدي سراج

*****

د. مجدي سراج

"العزف على أوتار الذاكرة"

مع تباشير الصباح. نهضت الشمس من مرقدها ثم صنعت من خيوطها الذهبية تاجًا وضعته على رأس المدينة بعد أن كست شوارعها بالدفء والنشاط. العصافير تزقزق وتقفز بخفة ورشاقة على حواف النوافذ وكأنها تحث مَن بالداخل على النهوض ليبدأ يومًا جديدًا مع الشمس.

شققتُ الطريق المعتاد إلى الموقف وسط ضجيج السيارات وأدخنة عوادمها وأصوات الباعة. وعلى الجانبين مطاعم متراصة مُشرعة الأبواب تفوح منها رائحة الطعمية والبطاطس المقلية بالزيت فتثير الرغبة في الطعام وفي بعض الأحيان أقاوم وأواصل المسير وأحيانًا أخرى أرفع الراية البيضاء أمام السياط التي تلهب معدتي وأنزوي جانبًا لأصيب بعضًا منه.. وبجوار تلك المطاعم وأمامها تجد أناسًا يفترشون الأرض. ثيابهم بالية. شعرهم أشعث، أغبر وأجسادهم متسخة... البعض أطرافه مبتورة، والبعض الآخر قد سُلب بصره. يتسولون بعاهاتهم ويرددون كلمات لها وقع مؤثر لكل من كان له قلب. فلا يملك إلا أن يلقى في حجورهم بعضًا من القطع المعدنية.

وفي موقف السيارات. اتخذتُ مكاني في الحافلة المتوجهة إلى قريتنا. طال الانتظار بنا. الركاب يتململون... والسائق يحوم من حولنا، به شيء من توتر وينفث في الهواء دخان سجائره.

ووديع الصافي يصدح عبر المذياع.

دار. يا دار. يا دار..... يا دار قولي لي يا دار.

راحوا فين حبايب الدار؟..... فين؟ فين؟ قولي يا دار.

لياليكِ كانت نور..... يسبح في ضيّه بحور.

صبحت فضاء مهجور .... مرسوم في كل جَدار.

ياما نمنا فيكِ سنين.... نتهنى وفرحانين.

دلوقتي مش لاقين.... أمان بعدك يا دار.

مسّت هذه الكلمات شغاف قلبي ومزّقت نياطه حزنًا. ولمع الدمع في العيون... سبحتُ بخيالي بعيدًا في يَمّ الذكريات وصهل جوادها وانطلق يعدو ويعدو حتى وطئت قدماه أرض العراق (بلاد الرافدين) وتذكرت الخير الذي أصابنا منه من إعمار بيتٍ وعيشةٍ كريمةٍ ومواصلة الدراسة الجامعية. والذكريات الجميلة التي حدثنا بها الأشقاء والأصدقاء الذين هاجروا إليه يومًا ما.. شارع الرشيد ببغداد. مطعم أبو نواس.. الأكلات العراقية الشهيرة وعلى رأسها السمك المسكوف... وتذكرت حضارة هذا البلد العريق وما كان به من خيرات جعلته ذات يوم قبلة الشباب الأولى التي يولي وجهه شطرها للهجرة والعمل بتكلفة بسيطة لا تتعدى قيمة التذكرة ودون أي مخاطر... وكيف أصبح حاله الآن بعد أن تآمروا عليه ونسجوا قصة أسلحة الدمار الشامل واتخذوها ذريعة لغزوه وتدميره. وفوق كل ذلك قدموا رئيسه أضحية للعيد لتهنئة جميع المسلمين بعيدهم الأضحى... وبات هذا البلد العريق ساحة للاقتتال الطائفي والتمدد

الشيعي الإيراني ولحق به الغزو الداعشي الذي يقتل ويعربد على الهوية. واستولى على كثير من مفاصل البلد ومقدراته..... ثم عرج الجواد إلى بلد الجوار... الشام الحبيبة.. بلد الخيرات والحضارة العريقة.. ذلك البلد الذي كانت قريش تذهب في رحلة الشتاء إليه بتجارتها.. وكيف أصبح الآن.. البنية التحتية قد دمرت والأهل بين قتيلٍ وشريد.

لاجئ في مخيمات على هامش الحياة.. تلهبه سياط الجوع والخوف ومن يحاول الهروب من ذلك الجحيم.. قد يبتلعه البحر أو تهوي به الريح والموج في مكانٍ سحيق.

استأثرت بي الأماني أن يجتمع شمل الأمة العربية والإسلامية لدحر الإرهاب الذي صنعته أمريكا لخلق الفوضى وتمزيق جسد الوطن فحال ليبيا وتونس واليمن لا يخفى على أحد.. كما نسأل الله أن تعود فلسطين المغتصبة حرة أبية.. وما ذلك على الله بعزيز.

أفقت من شرودي، وعدت إلى أرض الواقع على صوت أزيز المحرك والسيارة تستعد للانطلاق.. عدّلتُ من وضعي... وبمنديل ورقي مسحت وجهي ونظارتي.. وعدت لأتابع الطريق على الجانبين تارة. والسائق وهو ينفث دخان السجائر تارة أخرى.

*****

"المجنون"

كان يبدو طبيعيًّا وهادئًا عند أول لقاء به ولم ألحظ عليه شيئًا غريبًا يثير الشك.... فهو متوسط القامة. نحيل الجسد. وجهه شاحب به آثار بصماتٍ لأصابع الزمن. عيناه غائرتان في محجريهما وكأن النوم هجرهما منذ زمنٍ بعيد. وفمه قد أتى السوس على ما به من أسنان ولم يُبْقِ منها إلّا جذروًا سوداء لتظل شاهدة على ذلك الطغيان. يجوب الشوارع ليلًا ونهارًا غير مبالٍ بحر صيف أو برد شتاء مرتديًا قبعةً حمراء ونظارةً سوداء وممسكًا بيده عصًا أنيقة يَهشُّ بها كلاب الليل النابحة في جوف الحي.

جوادًا كلما ملك المال... يتلو آيات من القرآن الكريم. يعقبها بحكمٍ وأمثالٍ وأقوالٍ مأثورة. ثم ينظم أبياتًا من الشعر الموزون من شعر شوقي ورامي... وفجأة ينتفض ويبصق على الأرض ويولي مدبرًا دون أن ينبسُ ببنت شفة.



تملكتني الحيرة واستأثرني الفضول... أريد أن أعرف هذا السلوك... هل هو سلوكٌ طبيعيٌّ أم به شطط؟

ركنت إلى صديق لي أكثر درايةً بحالهِ مني لأستقصي الخبر... فمصمص شفتيه وارتسمت على محياه أمارات الحزن ثم قال: هذا الرجلُ يكنى ب (أبو ربيع)... وقد سمعت من أهل الحي أنه على هذا الحال منذ

زمن بعيد وهو الآن قد تخطّى العقد الخامس من عمره وكان موظفًا حكوميًّا ولكنه أُحِيلَ للتقاعد المبكر بعد أن أصبح غير مؤهل للعمل. وتبدل حاله من حال إلى حال بعد أن هجرته زوجته ورفض أولاده البقاء معه.



وفي هدأة الليل. وقد توسّد الظلام كفّيهْ ونام على جنبات الطريق. وألقى القمر برأسِه في حجر غيمةٍ تبدو وحيدة على صفحة السماء... كان المشهد غريبًا فإذا به ماثلًا وسط الشارع متجردًا من ثيابه وكأنه يحتج على تصاريف القدر، وصراخه يشرخ جدار الصمت المخيم على أرجاء المكان. فنهض من لم يدركه النوم، البعض يحاول تهدئته وإقناعه بالعودة لمنزله لارتداء ملابسه... والبعض الآخر يضرُب كفًّا بكفٍ ويقول: "يا مثُبت العقل يا رب! الرجل اليوم حالته لا تسر عدوًّا ولا حبيبًا؟"

الحضور آلمهم المنظر وتألموا حزنًا من أجله. والقمر رفع رأسه من حجر الغيمة وبكى حزنًا عليه والنجوم توارت بعد أن احمّرت وجنتاها خجلًا... ومن بين هؤلاء كان هناك رجلٌ استبد به الغضب وصاح قائلًا:

- أما لهذا المجنون أن يكف عن أذى الحي وخدش الحياء. لا بد من إبلاغ الشرطة.

ولم يمضِ من الوقت الكثير... والسيارة تعدو تشق صدر الظلام في ذلك الليل البهيم حتى انتهى به المقام خلف أسوار مستشفى الأمل.

*****

"السرير الأبيض"

عن النبي ﷺ أنه قال: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم. مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

"كنا آنذاك طلابًا بالفرقة الثالثة شعبة العلوم بمدرسة ثانوية تطل على طريق عام بأطراف المدينة. مبانيها ذات طابع معماري فريد يحكي قِدَمها وعراقتها. تحيطها حديقة إذا أتاها الربيع أزهرت وفاحت منها روائح زكية. وبجانب السور شجيرات باسقات ينسقها بستاني طاعنٌ في السن. وأمام الباب يجلس الحارس وهو رجلٌ يحوم عمره حول الأربعين. ربما يزيد قليلًا. طويل القامة. عريض المنكبين. حاد النظرات. يعلو شفتيه شارب أسود كثيف. وبشرته اكتسبت لونها من شمس الريف. قلما ترتسم البسمة على شفتيه وكأنه اتخذ على عاتقه عهدًا ألّا يبتسم ونحن في فناء المدرسة ظنًّا أن ذلك ينتقص من هيبته.



ومع بداية اليوم الدراسي وانتهاء طابور الصباح واتخاذنا أماكننا على مقاعد الدراسة. يتردد ذلك الاسم "عبد العزيز محمد أحمد" في كشوف الغياب. لم يكن موجودًا بيننا وتنامى إلى مسامعنا أنه مريض ويرقد بمستشفى الأمراض الصدرية. وأطرقت آذاننا كلمة "السل الرئوي" أو الدرن. ذلك المرض يسببه ميكروب ضعيف تدمره أشعة الشمس ولكنه إذا

تمكن من جسم الإنسان ينشط ويتوغل وينخر كما ينخر السوس ومن أبرز علامات الإصابة به أن يبصق المريض دمًا.

وفي صباح يوم شديد البرودة وكل منا يتدثر برداءٍ صوفي وقف بيننا رائد الفصل. معلم مادة الكيمياء والعائد لتوه من إعارته بدول الخليج وتبدو عليه آثار النعمة. يحثنا على التبرع لشراء هدايا كي نقوم بزيارة لزميلنا، "وفي وقت المحن تلين القلوب"، جاد كل منا بمدخراته. ربما تعاطفًا مع زميلنا ورحمةً به أو تقربًا إلى الله بالصدقات حيث إننا طلاب ثانوية عامة ومن يدرك تلك السنة تغلب عليه الشفافية والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة والمحافظة على الصلواتِ بالمساجد طمعًا في توفيقه.



في طابور طويلٍ طفنا أرجاء المستشفى. وتعليمات الأطباء تدوي في آذاننا بالحرص. وعدم لمس الأشياء ومصافحة المرضى لتجنب العدوى.

في الغرفة رقم ٧ وعلى السرير الأبيض يرقد شابٌّ نحيلٌ شاحب الوجهِ. غائر العينين. لما رآنا ارتعشت شفتاه ولمعت عيناه وفاضت بالدمع. ربما لإحساسٍ قد انتابه أنه مريض فعليًّا.. أو لأنه لم يكن يتوقع زيارتنا. تدافعنا نحوه نحتضنه ونُقبلهُ غير مبالينَ بتعليماتِ الأطباء كل ما يهمنا الشدُّ من أزره وليذهب ذلك الميكروب إلى الجحيم. فهؤلاء المرضى بحاجة إلى دعم نفسي ومعنوي وجبر خاطر.

وعلى الأَسِرّة المجاورة تجد ثُلة من الشباب على شاكلته تتفاوت أعمارهم يجتمعون مثنى ورباع يلعبون الورق (الكوتشينة) تعلو أصواتهم "الولد-

الشايب - الكومي" ويقامرون بحقن الإستربتومايسين التي يتداوون بها. ربما للسخرية من آلامهم أو لليأس من تماثل الشفاء. صافحناهم وأهديناهم مما حملنا معنا. ثم ودعناهم وانصرفنا.



يبزغ فجرُ جديد وينهزم الليل أمام جيوش النهار. ولم يعد ذلك الاسم يتكرر بيننا. بل اكتفت الإدارة بكتابة عبارة (أجازة مرضية) أمام اسمه في كشوف الغياب.

ومع نهاية العام الدراسي كان كل منا قد زُفَّتْ إليه البشرى بما كان يحلم أو يتمنى. منا من التحق بكلية الطب وآخر بكلية الصيدلة وآخرون بالعلوم والتربية والزراعة. وبات كلٌّ يمني نفسه بمستقبلٍ زاهرٍ. يسترسل في أحلامه إلى الماجستير والدكتوراه وافتتاح عيادة أو صيدلية.

وفي الوقت الذي تملكتنا فيه الأماني والأحلام كان عبد العزيز قد زُف إلى دارٍ عند أول منزلة منها تتهاوى كل الشهادات والمراكز العلمية والدنيوية عند سؤال الملكين.

من ربك؟ وما دينك؟ وما اسم الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟

*****

"العاشقان"

على شاطئ البحر وقبل الغُروبِ. كست حمرة الخجل وجه الشمس فتوارت خلف صفحات الماء.. طيورُ النورس تتراقص وتتمايل علوًّا وهبوطًا، ومزيجٌ من زقزقتها مع رفيف الأجنحة يدغدغ المشاعر ويُطْرِبُ الآذان... وقعت عيناه عليها... جَفِلَ من هول المفاجأة.. كانت ممددةً على كرسي خشبي تحت مظلةٍ ما زالت مُشرعةً رغم انكسار الحرارة... وقف مشدوهًا ثم سأل نفسه: "هل من المعقول أن نلتقي بعد عشرين عامًا ودون موعدٍ مُسبق؟".

ثم يجيب: "ولمَ لا؟ فهي لم تغب عن خاطري لحظةً واحدة"، ثم شرد بذهنه إلى ما قبل الفراق... فقد جمعتهما قصة حُبٍّ، كانا مضرب الأمثال في الحرم الجامعي وتعاهدا أن يكلّلاها بالزواج ولكنه رُفضَ من قبل عائلتها متعللين بعدم ارتقاء مستواه الاجتماعي للمستوى الذي يعيشون فيه... فهو ريفيّ الأصل والمنشأ.. لأب مزارع ربّاه على القيم والمبادئ وبذل كل ما بوسعه لإكمال تعليمه. أما هي فكانت تحيا حياةً مترفةً وتقطن أحد الأحياء الراقية في قلب العاصمة ولما يئس بعد تكرار المحاولة. انسحب بهدوءٍ وقرر الهجرة إلى بلدٍ لا يعلم أحدٌ فيه بقصته... نذر نفسه للعمل وكلما أُوقدتْ نارُ الشوق بين جنباته أطفأها بالنظر إلى الخاتم الذي أُهْدِيَ إليه فيرى صورتها ويشمّ رائحتها.

أفاق من شروده... توجه صوبها.. لم يلبث طويلًا حتى انتصب أمامها وبأنفاسٍ متلاحقةٍ وبصوتٍ خافتٍ.. هَمسَ: هناء...

اندهشت.. أشاحت نظارتها السوداء.. فغرَ فوها.. ثم قالت: أحمد؟

- نعم.. أحمد، ما زلتِ جميلةً؟

كست الحمرة وجهها كما كست وجه الشمس قبيل الغروب ثم قالت:

- دع عنك المجاملة فقد تركت أصابع الزمن بصماتها على وجوهنا.

- أين زوجكِ وأولادكِ؟

ابتسمت ابتسامة تلفُّها السخرية ثم قالت: لم أتزوج؛ فبعد أن غادرتَ تماديتُ في رفض كل من تقدّم لي دون مبرِّر. لأنني كنت أبحث عن شخصك فيهم ولكنني لم أعثر عليه. حتى تركني القطار في آخر محطة ثم غادر، كرَّستُ كل وقتي وجهدي للعمل وبعد فترةٍ وجيزةٍ توفي والدي فتوليت إدارة الشركة.. وها أنا الآن كما ترى؛ أصبحت سيدة أعمال ولكن حياتي خاوية رغم ما أتمتع به من نِعَم.

تمتم بكلماتٍ غير مفهومة وكأنه يقول لها وأنا أيضًا.

خفقان القلوب يعلو ويعلو.. حباتٌ من العرق تناثرت على الجبين.. طالت النظرات... تشابكت الأيدي... ثم تسارعت الخُطى...

"قلوب العاشقين لها عيونُ ❖ ترى ما لا يراه الناظرون"

*****

"الغريزة"

القريةُ رافلة في النعاس، البرد قارس، الريح عاصف، المطر غزير والأرضُ مُوحِلة. السماءُ بها نجمات وجهها شاحب وكأنها حزينة على غياب القمر، وفي هدأة الليل تدوي صرخات متتابعة فتبدد الصمت النائم في أرجاء المكان.

الدَّاية. عجوز متدثرة بلباسٍ ثقيل تتلثم بشالٍ أسود اللون لا يظهر من وجهها إلّا أنف احمرّت أرنبته من شدة البرد، قدماها تتعثران في الوحل. بيدها قنديل تهتدي به في ظلمة الليل وعصا تتوكأ عليها وتهش بها الكلاب النابحة تتمتم بكلمات:

"يا لطيف. الطف بعبادك يا رحيم".

جلستْ من تحتها ثم أطلت برأسها وقالت:

- البكرية تتأخر.. بإذن الله يأتي الفرج مع أذان الفجر..

البيض المسلوق وفصوص الثوم يُحميان الطلق... دقائق معدودة تمر ببطء شديد. تأوهات وصرخات مكتومة فتقول لها: احبسي نَفَسكِ واضغطي لأسفل، ثم تلتفت وتأمر الزوج بأن يرتدي ثوبه مقلوبًا وهو حائر يغلبه القلق والتوتر.

الأب يسجد لله ويسأله أن يلطف بابنته.

والأم قابعة بجوارها تشد من أزرها وتمسح حبات العرق التي تفصدت من جبينها.

وفي هدنة من الطلقات والصراخ تداعبها العجوز قائلة: ما رأيكن يا بنات هذا الزمن في الحمل والولادة.

بصوت مكتوم تعض شفتيها. ثم تقول: حرَّمت، خلاص.

ويعود الطلق ويتعالى الصراخ وتنتفض العجوز ويعلو صوتها: الماء الساخن.

ويختلط صراخ الأم مع بكاء المولود بزغاريد الدنيا ويفرح الجميع وفي نشوة الفرح تلتفت الأم إليهم بعد أن احتضنت المولود وتسأل:

- ولد أم بنت؟

فتقول العجوز: بنت مثل القمر.. سوف أكحلها يوم سبوعها.

فراودها حلم الحمل من جديد عسى أن يهبها الله الولد في المرة القادمة.

*****

"السوق"

الجُمعة يوم عيدٍ. يسعدُ به كل من يستيقظ من نومه مبكرًا فيخلد البدن للراحة وتسكن الطمأنينة القلب. فيه تسعد الأمهات والآباء بعودة الغريب ولمّ شمل الأسرة واجتماعهم حول سفرةٍ واحدة بعد شتاتٍ أصابها. فيه تَعمُّ الفرحة أرجاءَ البيت ويرقصُ السرور في كوامن النفس.

وعلى مشارفِ القرية وفي أرض فضاءٍ واسعةٍ يُقام السوق. ومع اكتمال خيوط الشمس تنهضُ القرية من مرقدها وتمسح ما عَلِقَ بوجهها من آثار النوم ثم ترتدي أبهى حُللِها وتتأهب لاستقبال الباعة والتُّجار الذين يَفدُون إليها من كل حدبٍ وصوب. سياراتُ نقل. عربات "كارو" تجوب الشوارع في طريقها إلى السوق.

نساءٌ يحملن على رؤوسهن سلالا بها خيرات ريفية من سمنٍ بلدي وبيض وجبن وبأيديهن أقفاص بها حَمام وبط، كل امرأةٍ منهن لديها زبائنها من الموظفين والذين تتوق نفوسهم إلى تلك الخيرات.

وفي وسط الساحة تُدَقُّ الشماسي وتُعَرضُ من تحتها البضاعة من خضروات وفاكهة.

وعلى الجوانب تجد القصـَّاب يقطع اللحم لزبائنه وبجواره الشـوّاء يُشعلُ الفحم ليشوي الكفتة والكباب.

وشادر السمك به البوري والبلطي والقراميط وبجواره سيدةٌ قابعةٌ أمام فُرنٍ تشوي لمن يريد.

تجوب النساء بصحبة أطفالهن بين الباعة يتفحصن البضاعة لتقرر كل منهن شراء ما يلزمها.

تعلو أصوات الباعة كلٌّ يتغنى بما لديه: "مجنونة يا قوطة.. طري يا خيار.. حيَّاني يا بلح.. الموز البلدي". ويغرين الأطفال بالحلويات الشرقية، البسبوسة، الكنافة، الهريسة وكل ما لذَّ وطاب. كُلّ يريد الخلاص من بضاعته.

النساء يتلاقين ويسعدن معًا لبعض الوقت وقد يتواعدن على اللقاء لاحقًا.

الأطفال تلهو وتعبث بالحاجيات.

وفي ركن بعيدٍ من الساحة تتراص عربات الكارو، بعضها به حبوب وبقوليات من عدس وفول ولوبيا، ومن بين تلك العربات توجد عربة مُحَمَّلةٌ بأقفاصٍ كثيرة من العنب، وحمارها ينظر إلى حمارٍ آخرَ بعربةٍ بها أعلاف خضراء وهو يلوي عنقهُ يُمنةً ويسرة ليلقف ما تيسر له من لفائف البرسيم ثم ينهق منتشيًا ويضربُ الأرض برجليه الخلفيتين ثم تتدلى ذكورته وتهفو نفسه إلى أتانٍ على مقربةٍ منه. تسري الغيرة في أوصالِ حمار العنب فيلوي عنقه يمينًا ويسارًا ولكنه لا يجد شيئًا يلقفه. فينهق نهيقًا خافتًا ينمّ عن حزنٍ دفين. ثم يدس رأسه في جوال التبن ويهش بذيله بعض الذباب الذي يحومُ من حوله ويحطُّ على روثه.

وقُبَيْل صلاة الجمعة ينفضُّ الجمعُ ويُلَمْلِمُ الباعة ما تبقى لديهم من بضاعة ويتممون على أكياس نقودهم ويعودون أدراجهم..

وتعودُ النساء إلى بيوتهن وقد تبضَّعن من كل شيء.

فمن الجمعة إلى الجمعة تنعم البيوت في خير كثير، البسمةُ مرتسمةٌ على الشفاه والسعادة والرضا تغمرُ القلوب.

وتخلو الساحة فلم تكد ترى إلّا بعض الماعز وهي تقضم أعناق الكرنب الخضراء، وأسرابًا من الحمام تعلو وتهبط ورفيف أجنحتها يبعث السرور وهي تلتقط ما تناثر من حَبٍّ.

*****

"السجين"

الشتاءُ لاحتْ بشائرهُ وكان ذلك اليوم مائلًا للبرودة. الشمس تدثرت ببعض الغمام وبين الفينة والفينة تهبُّ نسمات باردة تلفح الوجوه وترتجف على إثرها الأبدان.

نهض محمد متثاقلًا حزينًا بعد ليلةٍ طويلة كان فريسةً فيها للقلق والتوتر. خفقان قلبه يدوِّي في أذنيه. وقف صامتًا مُنصتًا إلى السجان وهو يتلو عليهم قائمة الزيارات. ترتسم أمارات الفرح على من يسمع اسمه.

ولما فرغت القائمة ولم يسمع محمدٌ اسمه ارتسمت على محياه سحابة من الغم والهم. ثم عاد حزينًا مطأطئ الرأس إلى العنبر ويحاكي نفسه: تلك هي النهاية يا محمد؟ خمسة عشر عامًا خلف الأسوار العالية وحرية مُكبَّلة ودموع تذرفها العيون حسرةً وقهرًا. وإن كتبت لك الحرية مرة ثانية ستغادر هذا المكان وقد فعل بك الزمن ما يفعله، لقد فعلها المعلم وهدان وأوشى بك عندما استشعر أنك تريد الاستقلال. فعالم المخدرات ليس به مبادئ ويبدو أنني لم أجِد اللعب مع الكبار.

وما زال يسأل ويجيب حتى باغته صوتٌ خشنٌ قادمٌ من بعيد بدَّد الصمت المخيم على أرجاء العنبر قائلًا: "لا تحزن يا صديقي. هذا حال الدنيا. من يتمتع بالحرية خارج الأسوار ينسى دائمًا من خلفها وعليك أن تنساهم كما نسوك كي تمضي الأيام وتنقضي مدة المحكومية أو يقضي الله أمرًا كان مفعولا. فأصعب ما في السجن الأيام الأولى. وها أنا أمامك

محكومٌ عليّ بالمؤبد في جريمة قتلٍ. وقد كنت مثلك الآن ولكن الأيام تمضي ولا تقف عند موت أحد أو فراق حبيب".

انتفض محمد قائلًا: "ولماذا لم تأتِ فاطمة والأولاد. لقد وعدتني بالزيارة في أثناء المحاكمة وقبل ترحيلي إلى السجن تمنيت أن أراها هي والأولاد... لا، ولكن لا أحب أن يراني أولادي وأنا هكذا. ما يُحفر في ذاكرةِ الأطفال لا تمحوه الأيام... والمعلم وهدان لم يأتِ ولم يرسل أحدًا من صبيانه! صدقت؛ مَن بالخارج ينسى دائمًا من بالداخل. ولكن ما يخيفني أكثر أنه أوشى بي كي يخلو له الطريق ويظل عالمه دون منافس له ويستحوذ على فاطمة. لا أنسى نظراته الخبيثة التي كان يرمقها بها في أثناء زيارته لنا في بيتنا. فلو تحقق ما يدور بخلدي وطلبت فاطمة الطلاق وتزوجت من المعلم فماذا عن مصير الأولاد؟ هل يربَّوْنَ في كنفهِ ويكون أمينًا عليهم؟ أم يُطلقهم في الحواري والأزقة يوزعون الكيف على أصحابه".

هذا هو العقاب الإلهي يا محمد... فإن ربك لبالمرصاد ويمهل ولكنه لا يهمل. فهذا كله ذنب بعض الشباب الذين جرفتهم لمستنقع المخدرات ووحل الإدمان.

ثم صرخ صرخةً مكتومة بعد أن خنقته العَبْرة واتكأ على الحائط وأسند رأسه على ذراعيه وراح في تفكير عميق.

*****

"الغجرية"

بجوار السور المقابل للجامع الكبير على مدخل القرية اعتادت عيناي على رؤية تلك الخيمة وقد شُدَّ وِثاقها إلى أوتادٍ زُرِعتْ من حولها. بها أناسٌ يختلفون عن أهل قريتنا في اللون والطباع والكلام. وكانوا يُنْعَتون بالغجر.. كانت لهم طقوس وأفعال يمارسونها وكثيرًا ما شدَّتني إليهم... ونساء قريتنا ما إن كن يعلمن بقدومهم وحط الرحال يتوافدن عليهم ومع كل منهن الأواني النحاسية التي شُوِّرتْ بها أثناء زفافها لزوجها.. "طشت وحلّة وإبريق وحنفية" وقد تراكم عليها طبقات خضراء اللون... فتجد مبيّض النحاس قد انتصب وسط الطشت أو الحلة الكبيرة وأسند بذراعيه على جدار السور ومن تحت أرجله الرمل والحصى وبدأ يتراقص ويدور يمنة ويسرة بعد أن شمَّر عن ساقيه وشد وسطه بِحبلٍ متين.



وفي صباح يوم شتاءٍ بارد والسماءُ ملبَّدةٌ بالغمام وبدأت تذرف الدمع الخفيف ليلامس خدود الورد في حديقة العُمدة المزدانة بأشجار الليمون والرمان. وإذا بامرأة فارعة الطول. قدّها ممشوق.. لونها حنطي كسنابل القمح وقت الحصاد جميلة الملمح بعيونها الزرقاء. ترتدي جلبابًا أسود اللون فضفاضًا. معصوبة الرأسِ ويتدلى من أذنيها قرط دائري.. يطوق عنقها عقدٌ من خرزٍ حباته كبيرة.. تتغنى بصوتٍ يختلف عن صوت نساء قريتنا:

"معانا أمشاط وفلّايات تعالوا يا بنات.. ندق ونِطاهِر.. نقرأ الفنجان.. ونشوق الكف والطالع".

وما إن يسمعن صوتها يعلمن أن الغجرية قد وصلت... وبجوار جدار أي من بيوت الحارة. تفترش الأرض وتضع عن رأسها مشَنّتها المصنوعة من الخوص وتنثر بضاعتها. فتجد عقودًا من الخرز حباتُها صغيرة وكبيرة ألوانها مختلفة كألوان الطيف.. "غوايش" وخلاخيل من نحاس وفضة.. وأمشاط وفلايات مصنوعة من قرون الماشية... النسوةُ يتجمعن حولها ويعبثن ببضاعتها ويسألنها عن الوشم الذي دقَّتهُ أسفل ذقنها. فتلتفت هنا وهناك ويرتطم الحلق المتدلي من أذنيها بأعلى عنقها. وإذا تنحت جانبًا مع إحداهن فاعلم أن لديها حالة ختان لإحدى البنات الصغار.

وبدأت تمارس نشاطها في ضرب الودع ببعض الحصى تعبث به بيديها. وتتأمل فنجانًا على جدرانه بقايا قهوةٍ قد جفَّت ثم تنظر إلى صاحب المسألة وتقرأ في عينيه مدى اللهفة على سماع أخبار سعيدة فَتُوحى إليه.

تحمَّستُ كثيرًا وتسللتُ من جوار أمي ومددت كفِّي الغضّ فنام في راحتها وأمعنتِ النظر في الخطوط المتوازية والمتشابكة ثم نظرت إلى أمي وقالت: "ولدك أمامه سفر طويل وسيركب الطائرة".

تبسمتُ وانتشيتُ وسحبتُ كفي ونظراتي مُصوبة إليها أتأمل قِرْطَها المتدلي وعينيها الزرقاوين.

تملكني السرور. وأنا أحدث نفسي وكأنني بكلامها قد اطَّلعتُ على مستقبلي وسفري الطويل والبعيد: "ولكن كيف وقد كانت أقصى أمانيَّ أن

يصحبني والدي معه إلى المدينة في نهاية شهر رمضان لشراء حاجيات العيد من حلويات وبلح ناشف وفول سوداني وحبوب الحلبة والترمس؟".

وها أنا الآن قد مضى بي العمر وسافرت سفرًا طويلًا وركبت الطائرة مرات عديدة.

ترى هل تحققت نبوءة تلك الغجرية..

كلا إنه تقدير العزيز العليم.. وكل شيء عنده بمقدار... وما هي إلّا منجمة كاذبة.

*****

"الرحلة"

يمضي القطار، يُسرِعُ تارةً ويبطئ تارةً أخرى. ومن المحطة الأولى ترجَّلتْ "عايدة" صوب عيادة الطبيب الذي أشرف على علاجها، والكائنة في بنايةٍ شاهقةٍ ذات واجهة زجاجية. تطل على ميدانٍ فسيحٍ تتوسطه نافورة تنساب من حولها السيارات بنعومة.. ويندفع منها رذاذٌ باردٌ يغسل وجه الزهور فتلتفت يمنة ويسرة مع النسمات الحالمة لتهدى ابتساماتها لمن حولها..

بخطى متثاقلة وأنفاس لاهثة ارتقت درجات السلم وحباتٌ من عرقٍ تتناثر على جبينها... اتخذت مكانها أمام الطبيب.. صدرها يعلو ويهبط. مكثت قليلًا ثم ناولته كيسًا به الكثير من الأدوية قائلةً:

- كل ما تراه يا دكتور لم يُجْدِ نفعًا.. ما زالت الأمور كما هي. آلام البطن. حرارة الليل ونقصان الوزن دون حِميةٍ أو نظام غذائي.

هو: هذا ما كنت أخشاه؟

هي: ممَّ تخشى يا دكتور؟

هو: دعينا لا نستبق الأحداث. ونكمل مسيرتنا في إجراء الفحوصات المخبرية والأشعة المقطعية والرنين المغناطيسي وإن لم يتم التوصل إلى المشكلة. سنضطر آنذاك لخزع الكبد.

هي: لماذا خزع الكبد؟ هل تشك في....؟

وأُلجِمَ لسانها.

هو: حتى الآن كلها إجراءات تشخيصية ولا نستطيع أن نُجْزِم بأي شيء إلّا بعد ظهور كل النتائج. رغم أن كل الدلائل تشير إلى أمرٍ ما.

أُسْقِطَ في يدها وأيقنت حينذاك أن الأمر خطير. وشردت بذهنها بعيدًا تُحدثُ نفسها: "ماذا لو حدث...؟ الأولاد ما زالوا صغارًا... ماذا هم فاعلون؟".

خرجت وهي تتمتم: "ربي لا أسألك رد القضاء بل اللطفِ فيه".

لم يدم الانتظار طويلًا وأتت رياح القدر بما لا تشتهيه سفينة حياتها. لاطمتها أمواج الحزن واليأس وباتت تَمخُر في عبابِ بحرٍ مظلم لا تدري أين الشُّطآن. تغوص تارة في أعماقه السوداء وتارة أخرى يحلق بها الأمل في عنان السماء. وهي كَرِيشةٍ تلهو بها الريح لا حول ولا قوة ولا تملك من أمرها شيئًا.. وما كان ليصيب المرءُ إلّا ما قد كتبه الله عليه.

احتضنت أطفالها. ورسمت بشفتيها قبلات حانية على جبين كُلٍّ منهم.. خرجت والأملُ يحذوها تخطو قُدُمًا صوب تلك العيادة وهي على يقين أن الطبيب سوف يبشرها بزوال المرض نهائيًا. وحدَّثت نفسها: أنا الآن بخيرٍ عن ذي قبل. بعد أن أتممت بروتوكول العلاج الكيماوي وما تبعه من آثار نفسية وبدنية والصلعة التي تركها تشهد على ذلك. ولكن هذا لا يهمني. المهم أن يكون المرض ذهب إلى غير رجعة.

بيدٍ مرتعشة وقلب يخفق بشدة بين أضلاعها وكأنها تلميذة تنتظر نتيجة اختبارات نهاية العام ومنها سوف يتحدد المصير.. تأملته وهو يدقق الفحوصات والأشعة ويُمعنُ في قراءة التقارير..

حرصت على قراءة لغة جسده... اكفهر وجهه. أشاح نظارته وألقى بها دون اكتراث.. نظر إليها مُقطبًا بين حاجبيه وقال والحزن يلُفّ صوته: آسف.. لم تأتِ النتائج كما نتمنى.. ما زالت الأورام موجودة. والاستجابة لبروتوكول العلاج ضعيفة.

هي: ولكنني أشعر أنني على ما يرام.

هو: هذا شيء جميل.. يجب أن تظل الحالة المعنوية مرتفعة.. فبالإرادة وحب الحياة تتمكنين من الانتصار عليه.

هي: وما هو الحل الآن؟

هو: لا يوجد أمامنا إلّا بابٌ واحدٌ ولا بد أن نطرقه.

لم يغلق الله بابًا إلّا وقد فتح عوضًا عنه أبوابًا أخرى ما دام للعبد رزق في الدنيا.

خامرتها فكرة الزراعة.. تشبثت بها وكأنها طوق النجاة.. لم تدم رحلة البحث عن متبرعٍ تتواءم أنسجته معها طويلًا تعلقت بحبال الأمل من جديد. وما بين الأمل والرجاء يباغتها فقدان الوعي. تفيق أحيانًا تسأل عن بناتها ثم تعود إلى ما كانت عليه.. وفي تلك الليلة كان القمر على غير عادته بدا وجهه شاحبًا.. وكان القطار مسرعًا وكأنه على موعدٍ يريد اللحاق به. في آخر محطةٍ له ومنها لا تتمكن عايدة من العودة مرة ثانية رغم أن بناتها ما زلن في انتظارها وكلما اشتد بهن الشوق والحنين إلى قبلةٍ ناعمة أو حضنٍ دافئ سألن من حولهن: متى ستعود ماما؟

*****

"في القطار"

خاصمتُ النوم في تلك الليلة. بِتُّ أتقلب على جمر الانتظار وأرقب بزوغ خيوط الفجر وهي تنبثق من ظلمةِ الليل، صوت الأذان يجلجل في سماءِ الحي الرافل في النعاس. نهضتُ من مرقدي. دلفت إلى الحمام. اغتسلت وتوضأت ثم أتممت صلاتي...مسحتُ وجوه إخوتي بنظرةٍ حانيةٍ أشبعتْ عاطفتي وهم في سُباتٍ عميق. نظرةٌ تكفيني أربعة أيامٍ وهي مدة الرحلة العلمية التي نظمتها إدارة شئون الطلاب بالكلية لزيارة مصانع شركات الأدوية بالقاهرة. حملت حقيبتي وأغلقت الباب بهدوء.

الشوارع خاوية إلّا من كلابٍ تنبح وقططٍ تموءُ وتتشاجر حول أكوام القمامة.. مطاعم الفول والفلافل تستعد لاستقبال زبائنها... النسيم عليلٌ يدغدغ الجسد ويبعث فيه الحيوية والنشاط.. توكلت على الله وامتطيتُ طريقي.



كنت أول من وصل إلى محطة القطار.. هذه عادتي.. الإبكار في كل شيء حتى إنني كنتُ دائمًا أول الحضور بين زملائي وأول من تلج قدماه قاعة المحاضرات وقد تضطر بعض العاملات أن يُلَوحنَ لي بالخروج حتى يفرغن من نظافة المكان.

وُلِدت الشمس من رحم الأفق ولمعت خيوطها في عيون المتسولين النائمين على أرصفة المحطة. فهبُّوا متثائبين استعدادًا لاستقبال يومٍ جديد

يستدرُّون عواطف المسافرين والقادمين بعاهاتهم وعُرْيهم ويتمتمون بكلمات تمس شغاف القلب.

صفير القطار يدوي ليوقظ الصمت النائم على القضبان ويتأهب للانطلاق... اتخذت مكاني بجوار الشباك كي أُمَتع ناظري بالمناظر الخلّابة على جنبات الطريق.. مياه وطبيعة خضراء وبشر ودواب يسبحون بحمدِ ربهم..

البعض من ركاب العربة أسند رأسه للخلف وعلا شخيره.. والبعض الآخر يتصفح جريدة أو يطالع كتابًا.. وبعد فترة وجيزة.. دبيب الحياة يسرى في أوصال العربة... بائع الصحف يتغنى: "أخبار. أهرام. جمهورية"، ويلقي برواياتٍ صغيرة، ومطوياتٌ بها أذكار الصباح ودعاء السفر بين أيدي الركاب... وآخر بيديه طوق حديدي به إكسسوارات وينادي بصوت عذبٍ: "معنا عقود وأساور... معنا أمشاط عظم ماركة النملة تطلع أصغر قملة... معنا البيبي دول. اللي يخلي العجوز زي الفل"، مداعبات للركاب وكلام لا يخلو من الفكاهة... وفي آخر العربة وقعت عيناي على بائع السميط الطازج والبيض أثار شهيتي فأصبتُ منه.



الشمس ارتفعت قليلًا وكست الدنيا بهجةً وضياءً والقطار يشق طريقه بين المزارع... وفي المقعد المقابل يقبعُ رجلٌ تشير ملامحهُ أنه تجاوز العقد الخامس من عمره. على وجهه بصمات لأصابع الزمن.. بشرته لون سنابل القمح وقت الحصاد... فوق رأسه عمامةٌ بيضاء ويرتدي جلبابًا لونه من

لون السماء في صفائها... شيء ما شدَّني إليه.. تجاذبنا الحديث ولما أَنِس إليّ دس يده في جيبه وأخرج قصاصة بها عنوان.

"كلية التجارة.. جامعة القاهرة. الجيزة". ألهبتني سياط الفضول ولم أبرأ منها حتى وقفت على حكايته..

يلمع الدمع في عيونه الغائرة.. ويقول: "هذا عنوان ولدي.. فهو طالب في السنة الأولى بكلية التجارة.. ومنذ آخر زيارة لنا سافر غاضبًا من زوجة أبيه... رغم أنها حنون وتغمره هو وإخوته بالعطف والحنان منذ وفاة والدتهم... ولما طال انتظاره ولم يأتِ إلينا قررت أن أزوره وأُطَيِّب خاطره".

شردت بفكري بعيداً وتذكرت والدي وما كان يفعله مع أخي غير الشقيق وهو يدرس بكلية الزراعة جامعة القاهرة.. وسألت نفسي كثيرًا: "هل زوجة الأب دائمًا متهمة بالقسوة وعدم محبة أبناء زوجها؟ أم أنها الغيرة من المرأة التي احتلت مكان الأم.. والتي تعمي الأعين عن رؤية ما تقدمه لأطفال صغار من حب وعطف وحنان؟".

يد ناعمة تربت على كتفي فأفيق من شرودي وإذا بصديقي يقول: استعد؛ لقد وصلنا إلى محطة مصر.

أدرنا ظهورنا للسور. الحقائب بأيدينا. وفي ذهني صورة ذلك الرجل وأتعجب من أوجه الشبه بينه وبين أبي.



"حكمتك يا رب"

لقد اعتادت عيناي على رؤيته بقفطان أزرق اللون وعمامة حمراء فهو أزهري منذ نعومة أظفاره يُطربني صوته الرخيم ويمسُّ شغاف قلبي وهو يتلو سورة مريم في مآتم القرية وتجده بصدر السرادق المقام بجوار القارئ الذي يؤتى به من المدينة أو من العاصمة أحيانًا إذا كان المتوفى ذا شأن عظيم، كان ذلك اليوم يوم الجمعة. قضيت الصلاة وانتشر الناس في الشارع منهم من تسوقه قدماه إلى المقهى لينفض عنه ما تبقى من نومٍ بكأسٍ من شايٍ ثقيل أو نفسٍ من شيشة. وآخر إلى بيته لوجبة غداءٍ يصيبها ويخلد إلى قيلولته.



كان شيخنا في ذلك اليوم على غير عادته حطَّ عن كاهله زيَّ الأزهر وجارى صيحات الموضة فبدا في حُلَّةٍ زرقاء وربطة عنق حمراء ويبدو أن اللونين الأزرق والأحمر يمثلان شيئًا كبيرًا له وأنا أسأل نفسي ما سر هذه الأناقة التي طرأت عليه فجأة ولكنني علِمتُ من فئةٍ قليلة لم تنتشر بعد الصلاة أن اليوم هو عُرس الشيخ. تجولت مع ذاكرتي في شوارع الماضي. توقفت أمام باب اليوم الذي زارني فيه بالصيدلية ليسألني عن السر الذي جمعني بها في طريق واحد ذات يوم.. أهي الصُّدفة؟ أم موعد ضربناه سويًّا؟ ولما أسمعته ما كان يود أن يسمعه. باح لي بمكنون صدره فهي فتاة حسناء تميل إليها خلجات النفس ويهوى حبها الفؤاد.

حينها مازحته قائلًا: إن هذه العمامة لا يوجد تحتها شيخ جليل ولكن تحتها عاشق مُتيَّم.

فضحك ضحكةً صافيةً تَنمُّ عن ارتياح شديد وقال: "نَقِّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى. ما الحب إلّا للحبيب الأولى" ثم ودعني وانصرف.



الليل يبسط رداءه في شوارع القرية، والأنوار زاهية كالشمس الساطعة. وقف الحضور جميعًا ينظرون إلى العروسين والبسمة مرتسمة على شفاههم الزغاريد تعلو وتعلو. العريس يلوِّح بيديه يمينًا وشمالًا. ارتقا المنصَّة ثم اتخذا مكانيهما وجاء المأذون يسعى وهو يخشى أن يكون قد تأخر على عقد القِران واتخذ مكانه أمامها سمّى الله ثم أثنى على رسوله وصلَّى عليه وتلا الآية الكريمة:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

ثم سأل وَلِيّ العروس: هل تقبل شيخنا الجليل حمدان زوجًا لابنتكم البكر على سنةِ الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ومذهب الإمام أبي حنيفة وعلى الصداق المسمى بينكم. قال: نعم أقبل.

ثم استدار ناحية الشيخ ليعيد عليه السؤال نفسه: هل تقبل البكر الرشيد زوجًا لكم على سنة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ومذهب الإمام أبي حنيفة وعلى الصداق المسمى بينكم.

الشيخ لا يجيب!

عاد عليه السؤال ثانيةً. لا يجيب. نظر إلى الجميع في ذهول وقال مستنكرًا: ما هذا؟ أنائم هو؟

نادوه باسمه. لا يجيب. حركوه فسقط دون حراك. رفع أحدهم يده فسقطت منه.

انتابهم الفزع. تعالى الصراخ. العريس فارق الحياة وردَّد أحدهم: سبحان الله، وهو يضرب كفًّا بكفٍّ والدهشة تسيطر على تعابير وجهه.

كم من صحيح مات من غير علّةٍ ❖ وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر

وكم من عريسٍ جهّزوه لِعُرسِه ❖ فَزُف إلى غيره في ساعة القدر

وبقدرة القادر تحول العُرسُ مأتمًا وضُرِبَ السرادق وأُوتي بالقارئ من المدينة وتصدَّر المجلس دون مجاورٍ له وتُلِيت سورة مريم ولكنه على شيخنا هذه المرة.

*****

اللص والأنثى

عقارب الساعة ﰲ بهو الفيلا تخلد هُنَيْهة إلى الراحة ثم تعلن انتصاف الليل. ونهار الحارس وزوجته كان طويلًا يلفُّه الشقاء فما لبثوا أن ألقوا بأجسادهم على الفراش حتى غطُّوا ﰲ نومٍ عميق.

دلف إلى غرفتها بخفةٍ حتى كادت أصابع قدميه لا تلمس الأرض. قاطعًا على نفسه العهد أنها ستكون الأخيرة.

رنين الذهب يتهاوى إلى مسامعها والبراءة تعلو محياها فيوقظها من نومها. اعتدلت ﰲ مكانها. دقَّقت النظر إلى خزانتها فإذا به ماثلًا كالمارد أمامها وجهه مكسو بقناع إلّا عينين تقدحان الشرر وكأنهما لِقطٍّ حاصرته الكلاب ﰲ مكان خَرِب، يداه مغطاة بقفاز أسود ويعلو جبينه مصباح صغير قد لا تراه إلّا ﰲ عيادة طبيب وأنت تخضع لفحص ﰲ الحلق.

جفلت كغزال شارد اقترب عن غير هدى من عرين الأسد. سحبت غطاءها الوتير إلى أعلى كي تواري سوءاتها. حاولت أن تصرخ لطمها على وجهها فماتت الصرخة بداخلها وهي تهوي إلى الأرض.



قد يفاجئنا القدر بما لم يدر بخلدنا فتتملكنا الحيرة ونلجأ إلى الله لنسأله منها المخرج.

هول المنظر يفزعه فترتعد فرائصه. نأى بنفسه بعيدًا كي يستعيد رباطة جأشه. وقعت عيناه عليها وهي ممددة وقد بدت له مفاتنها.

داعب الشيطان خوالجه واستأثرت به هفواته الغريزية فَهمَّ ليذوق عسلها لولا أن لاحت أمام عينيه صورة أمه وأخواته وناداه منادٍ أن يا ابن آدم كما تدين تدان.

فأخذته رعشة سرت في سائر جسده فاستغفر ربه وأناب. استجمع قواه ثم حاول إسعافها. حرَّك خديها برفق بين كفيه وكأنه يحنو على طفل صغير. نثر رشات من عطرها الفوَّاح على وجهها عادت إلى وعيها وفتحت عيناها ببطء وكأنها تعود إلى الحياة من جديد فزعت لرؤيته ثانية ولكنه هدأ من روعها وربت على كتفيها ثم ترك كل شيء وانصرف دون أن يمسها بسوءٍ أو ترى ملامح وجهه.



الوصيّة

اندفعتْ مهرولة خلف الجثمان وهو محمول إلى مثواه الأخير تولول وتلوح بيديها وتعدد محاسنه:

"يا جملي. أروح لمين بعدك يا أبو عيالي".

وأقسم أن الرجال لا يحظون بالتكريم من بنات حواء إلّا بعد أن يفرق الموت جمعهم، يُودَّعون بجنازاتٍ مهيبة. وتُسرد السّير الذاتية وقد يفرض الحداد.



ثلاث ليال مضت. انتهت مراسم العزاء. التف جميع أفراد العائلة حول المحامي وهو يتأبط حقيبته المنتفخة بالأوراق وكلٌّ تداعبه الآمال والأحلام بما سيؤول إليه من تركة المرحوم. طلبوا منه فتح الوصية. فردَّد بينه وبين نفسه: "والله لو تعلمون ما بها. ما طالبتم بفتحها".

فهو الذي كتبها بعد أن أملاها عليه أبوهم وهو في فراش المرض بصفته محاميه الخاص وكاتم أسراره. ثم تريث قليلًا وقال:

- لا نستطيع فتحها إلّا في حضور جميع الورثة.

هم بنفس واحدٍ: نحن جميعًا أمامك لا ينقصنا أحد. ذكور وإناث. والأجداد في رحاب ربهم... فماذا تقصد؟

هو: ما أقصده أن المرحوم له زوجة ثانية ولديها منه أولاد وبنات.

فكان لكلامه وقع الصاعقة على مسامعهم. فشهقوا وضربوا صدورهم. ثم ردَّدوا: زوجة وأولاد!

فلم تكن تلك أمانيّهم ودارت الدنيا بهم وتبخَّرت أحلامهم.

لوت الزوجة لجام الذاكرة وعادت بها إلى الوراء إلى أيام غيابه المستمر متعلّلًا بالسفر والمؤتمرات، وزهده في فراشها متعللًا أيضًا بكثرة العمل ومشاكله فتتركه وشأنه وتغوص في مشكلات أولادها.

نهضت من مكانها. تسللت إلى الخارج. نفضت ما بقي لديها من أحزان. تخلصت من ردائها الأسود. وقفت أمام الصورة المُعلَّقة تخاطبه وتوجه إليه اللَّوْم ثم تعدد محاسنها هذه المرة. أطبقت يديها وعضَّت شفتيها ثم أطلقت صرخة دوت في أرجاء البيت: آه.

فأطلَّ باستحياء من خلف البرواز وأهداها ابتسامة. وكأنه يطلب العفو والسماح.

*****

"ليلة غنّى فيها القمر"

لم يكن ذلك اليوم مثل بقية الأيام. انبلج الصبح. العصافير تتراقص على فروع الأشجار وتتغنى بنشيد الصباح. الشمس تطل باستحياء كشمس الشتاء من وراء حجاب وتمسح وجه القرية بأشعة تشبه خيوطها سلاسل الذهب وهي تتدلى على صدور نساء القرية عندما يتخذن زينتهن. تتبخر قطرات الندى التي ذرفتها أعين شجيرات باسقات على أطراف الحقول حزنًا على فراق الليل الذي ينأى بالصغار بعيدًا عنها ويكفيها شر عبثهم والتأرجح بفروعها الغضة الطرية.



اعتلى الأريكة الإسفنجية المزدانة بغطاء مخملي مأذون القرية ذلك العجوز بلحيته البيضاء ونظارته السميكة والتي يختبئ من ورائها عينان محمرتان جاحظتان وكأنهما تريدان الانفلات من محجريهما. أسند ظهره ثم تلا آيات من القرآن الكريم وبارك الزواج على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان وبحركة بهلوانية خطف المنديل الأبيض من فوق يدي وهي تعانق يد وكيل العروس ثم أخفاه في جيبه.. وثب قلبي بين أضلعي فرحًا.. وراح يهنئ بقية أحشائي. تجولت بين مقاعد الحضور أصافح هذا وأداعب ذاك.

توجهت صوب العروس فألفيتها تعتلي أريكة تشبه التي اعتلاها المأذون ومن فوقها جريدتا نخل تتعانقان ويتدلى منهما بالونات على كل شكل ولون. بيمناها منديل مطبق على بعض النقود وبيسراها نقوش الحناء

ومن أمامها فتيات يتسابقن في إطلاق الزغاريد، هنأتها فبادلتني ومسحت وجهها بنظرة عابرة فبدت على وجنتيها حمرة الخجل.

موكب العُرس ينطلق فرحًا صوب المدينة كي يهنئها بزفافنا فإذا بها على غير عادتها وكأنها في انتظار حدث عظيم استقبلتنا بالحفاوة وألبست كُلًّا منا لباس عُرسه ثم وضعت على رأس العروس تاجًا مرصعًا تتلألأ حبيباته ذات اللون الفضي تحت أشعة الشمس قبيل الغروب وهي تمتزج بأضواء المدينة فانتاب جيدها الغيرة فطوقته بعقدٍ من أزهار الفل. استأثرني الخوف على ملاكي فاحتضنته بين جفنيّ.



عرائس كثيرة في ثيابهن البيض الملائكية خِلْتُهُ سباق ملكات جمال الكون وكلهن وصيفات لملاكي. وميض الكاميرات الخاطف يشق صدر الفضاء وكأن السماء تبرق مبشرةً بأمطارٍ في صيفٍ حرّه شديد ثم ودعنا المدينة وامتطينا الطريق داخل سيارة مزدانة بورود وبالونات مختلفًا ألوانها. صفقت بكلتا يدي وزغردت العروس وكأنها في نشوة الفرح نسيت أن اليوم عُرسها وما عليها إلّا أن تنصت لزغاريد الدنيا من حولها ولكنها بادرت لتهنئ يوم الخميس بزفافنا.

أناس كثيرون ينتظرون على مشارف القرية لاستقبالنا وما إن رأونا تتابعت طلقات النيران لتنير وجه السماء وبدأ الموكب يزحف وسط شوارع تضيق أحيانًا وتتسع أحيانًا أخرى وأنا بجوار العروس أشد بيسراي على يدها وأتفادى بيمناي قطع الحلوى التي يرجمنا بها المهنئون وحصوات

الملح من الذين يخافون أعين الحاسدين. أطفال يسيرون أمامنا يحملون شموعًا يلمع بريقها ويتراقص لهيبها مع النسمات الحاملة التي تداعب القرية بين الفينة والأخرى فتلتفت إليها مبتسمة وتنهمر من عينيها دموع صافية ساخنة.



وكان مما جلب السرور إلى نفسي أن أراها قادمة من بعيد تشق الزحام بقوةٍ لم أعهدها عليها من قبل وكأنني نسيت أن الفرحة تمنحها القوة انحنينا نقبل يديها فطبعت على جبين كل منا قبلة حانية بثغر باسمٍ ووجه لا يخلو من تعابير الزمن. حامت شقيقتي من حولنا وفي يديها بخور يزيده الإحراق طيبًا. اعتلينا المنصة التي أعدت من أجلنا واتخذت العروس مكانها على يميني وبدأت أغفو لأحاكي أسارير الفرح ثم أنتبه لأغفو من جديد. ضُرِبت الدفوف ودقَّت الطبول وتعالى صوت المزمار ليقلق الصمت النائم على وسائد الظلام من خلفنا ثم تطلعنا معًا إلى السماء فألفيناها فرحة مسرورة وقد أقامت لنا عُرسًا لتباهي به الأرض. الشهب تغدو وتروح بخفة ورشاقة لتقدم برامج الحفل والقمر بدا وكأننا لم نرَه من قبل، وجهه مستدير ناصع البياض يرتدي حُلَّة أنيقة وربطة عنق وبدأ يشدو ويترنح يمنة ويسرة ويلوح بيديه ليلهب النجوم فتتراقص على أنغامه بعد أن شدَّت خصرها بحزامٍ من حرير.



مضت قرابة الساعة من نصف الليل الأخير. نهضت من مقعدي وأمسكت بيديها فضمّت يدي بخفة سرت على إثرها في جسدي قشعريرة وكأنما تيار كهربي قد مسَّني، ثم همّت واقفة وقالت: إلى أين؟، فغمزتها بعين واحدة غمزة كلها خبثٌ ودهاء فابتسمت وانفرجت شفتاها عن أسنان بيضاء لامعة وقلت لها: إلى المكان الذي طالما حلمنا به، نظرت في عينيها فإذا بالرضا نائم في مقلتيها ويلتحف الأهداب، ربّت على كتفيها وتقدمت أمامها قائلًا: هنا سيطيب مقامك فادخلي آمنة. فلملمت ذيل الفستان ثم دخلت بيمناها وأغلقت الباب.



"ويبقى الأمل"

عندما تراه يمشي مُحْدَوْدَب الظَّهْرِ يميل جسمه قليلًا إلى الأمام وبيده عصا يتوكأ عليها ويهش بها الكلاب النابحة ﭬ شوارع القرية ﭬ جنح الظلام تخاله يبحث عن شيء ما قد فقد منه. ربما يكون شبابه الذي ولىّ. الحنين إلى الصبية وهم يلعبون يدغدغ مشاعره ويمس شغاف قلبه فيهفو إليهم ويهبهم بعض الحلوى ويهمهم بنداء زكريا لربه:

﴿ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

إنه عجوز نالت منه الأيام يُدعى الحاج إبراهيم، على وجهه بصمات لأصابع الزمن، لقبه أهل القرية بالحاج بعد أن عاد من أرض الحجاز والعقد الخامس لامرأته قاب قوسين أو أدنى أن ينتهي وما زال بها بقايا حسن وجمال.

تخبطا كثيرًا ﭬ دروب التيه يتملكهما اليأس تارة فيتمصصان شفتيهما وتلمع الدموع ﭬ أعينهما وكأنهما يتحسران على ما مضى من سنين، وتارة يهتديان إلى سبيل الرجاء.



الأمل يداعبهما ويهمس ﭬ آذانهما أن لا تقنطا من رحمة الله. فهدأ الروع واتخذت الطمأنينة مكانها من القلب وعادا ليطرقا الباب من جديد.

الصباح في عيادة طبيب ثم يطغى عنفوان الأمومة على الزوجة فتنساق دونما إرادة وتحت إلحاحٍ شديد من جاراتها النسوة فيكون المساء وسط حفل زار ويقين بداخلها أن الله هو الوهاب.

شيء ما يتغير بداخلها، نهضت من فراشها. دلفت إلى الحمام، أزالت ما علق بها من غبار السنين. مشّطت شعرها، التقطت شعرات ناشزات أعلى حاجبيها. تزينت فبدت كأنها بنتٌ لعشرين عامًا في انتظار فارس الأحلام ويرق قلب الدنيا كالأم الحنون وباركت ليلتهما السماء.



الشمس قد أضناها طول السفر فبدا وجهها محتقنًا داميًا تمايلت نحو صفحات الماء. تجردت من ثيابها ثم ألقت بنفسها كي تغتسل أسراب الطيور تروح بطانا إلى أوكارها. قطعان الماشية تتجمع وتتزاحم مهرولةً نحو حظائرها حتى لا ينال ذئب الليل من ضالتها، السكون يخيم على القرية ونسمات خفيفة تلفح وجهها وتداعب الظلام الرابض خلف أوراق الشجر.

جاءها المخاض في منزلٍ كائنٍ على أطراف القرية بجواره نخلة شامخة وأمامه جدول ماء ليس منه ببعيد. نقيق الضفادع يختلط مع خرير الماء وهي تتأوه وتكتم صرخاتها ويتفصد العرق من جبينها والعجوز منتبذًا ركنًا بعيدًا هادئًا يتضرع إلى ربه أن يتم عليهما نعمته وفي هدأة الليل يخلد قليلًا إلى النوم. انسلخت خيوط الفجر. صوت المؤذن يجلجل في سماء القرية الرافلة في النعاس.

"أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله" وصوت الداية ملفوف بصراخ المولود يتهادى إليه من بعيد: "مبروك يا حاج جالك ولد"

نهض من مكانه وتحرك بخفة دون عصا وبدا ظهره منتصبًا كأن لم يكن به آفة.

توضأ وخرَّ لله ساجدًا وناداه محمدًا. أمسكه بين يديه. قلّبه يمينا وشمالًا كأنه لم يصدق.

شرد بذهنه بعيدًا وتوقف عند ربيع العمر وكم طال الانتظار. شيء ما حال بينهما رفع يده يتفحصه فإذا بها دمعة ساخنة.

*****

"موعد مع البحر"

بوقُ السفينة يعوي ليبدّد الصمت النائم في أحضان الظلام على رصيف الميناء. وكان وداع الأحبة هذه المرة على غير عادته؛ العيون تفيض بالدمع والأيدي تلوح حتى غابت في الأفق. والبحر أيضًا كان على غير عادته فقد بدا هادئًا وكأن لحظات الوداع قد أثارت شجونه. فأهدانا موجًا هادئًا يتهادى ليتحطم على الصخور وهو يلثم ثغرها.

الزوجة تعاني من فوبيا الطائرات لكثرة الأخبار التي أطرقت مسامعها. فهذه طائرة كونكورد تحترق بعد الإقلاع وتسقط في مياه المحيط. وأخريات يتصادمن في الفضاء. وزوجٌ يحذوه الأمل ليقضي أيامًا سعيدةً ليتخلص فيها من هموم العمل. وبينهما غلام يزحف عمره نحو الثامنة يشعر بالأمان وينعم بالدفء في أحضانهما.



الليلة انتصفت. استدار وجه القمر والنجوم لامعةٌ على صفحات السماء الصافية ليهتدي بها كل عابرٍ لدروب الصحراء.

السفينة تمخر في عباب البحر. والمسافرون خلدوا إلى النوم بعد أن أنهكتهم مراسم الوداع محتضنين أحلامهم وآلامهم. إلّا فئة قليلة افترشت السطح لتحاكي النجوم مع هدأة الليل. والهواء العليل يحمل رذاذ الماء ويتسرب إليهم ليدغدغ أجسادهم.

وبينما الجميع تعلو أنفاسهم وتهبط وهم نائمون. إذا بصوتٍ عالٍ يدوي في أرجاء المكان. القبطان يعلن عن نشوب حريقٍ في أحد المحركات. ولم يمضِ من الوقت إلّا القليل حتى عبأ الدخان كل الكبائن.

المسافرون يهرعون خائفين يتخبطون هنا وهناك، البعض يقظ، والبعض الآخر نصف نائم وكأنه يحلم إلى أن أفاقوا جميعًا وهم أعلى السفينة على كابوسٍ مفزِعٍ.



النداء يتكرر والركاب يتدافعون هنا وهناك. السماء من فوقهم والبحر يحيطهم من كل جانب. ونداء القبطان يُدَوّي في آذانهم بالتزام الهدوء، صراخ أطفالٍ وعويلُ نساءٍ ورجال تلهج ألسنتهم بالدعاء وأكف الضراعة مرفوعة تناجي ربها.

البعضُ يُرَدِّدُ دعاء يونس وهو في الظلمات: "لا إله إلّا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين". إشارات استغاثة كثيرة ولكن لا مجيب.

الأدخنة تتصاعد وألسنة اللهب جعلت وجه الليل مضيئًا وكأنه يحاكي النهار. تملَّك اليأس من الجميع ولاحت أمامهم أحداث سفينة تيتانيك وهي تودع مدينة الضباب لتصافح تمثال الحرية في مياه المحيط وكان لها ما كان. فأيقن الجميع حينذاك أنهم هالكون إذا لم تتداركهم رحمة ربهم. الكل يبحث عن أطواق النجاة. وبدأوا يقذفون بأنفسهم من أعلى إلى أحضان البحر على غير هدى وكأنهم يَفِرُّونَ من قضاء اللهِ إلى قضاءِ الله.

والزوجة تحتضن غلامها وترمق زوجها بنظراتٍ وكأنها تسأله أن ينجو بنفسه ولكنه يأبى.

ولم يعثروا إلا على طوق نجاةٍ واحد ربما يكون القدر هو الذي هداهم إليه. تقاذفوه بينهم إلى أن التقت عيناهما ولمع فيهما الحب ودار بخلد كل منهما العهد الذي قطعاه على أنفسهما منذ اللقاء الأول. أن الحب يجمعهما والموتُ يجمعهما فألبست الغلام طوق النجاة وفعلت به كما فعلت أم موسى لتشمله عناية السماء. ثم تعانقا وغاصا مع السفينة ليكمنوا مع الدُّرِّ في أحشاء البحر.



"العرّاف"

الأرض موحلة، والبرد قارس، والسحاب قد ساقه الله إلى بلد آخر ليحيي به ما في باطن الأرض. جموع غفيرة متلاصقة ببعضها من أثر البرد والذي تراه على وجوههم وأنوفهم المحمرة، في يد كل منهم قصاصة أثر والقلب يملؤه الحزن إما على ولدٍ غائبٍ أو زوجٍ لاهٍ وشارد أو ابنة قد أوشك قطار الزواج أن يغادر دونها.

وكان الشيخان لا يبدو عليهما آثار السفر ولم يتبادر إلى ذهن العراف أنهما أناخا المطايا بالقرب من منزله وتملكته الحيرة من أمرهما وكأنهما هبطا عليه من السماء فثيابهما أنيقة ونعالهما لامعة وعماماتهما لا يوجد بهما أثر لمطر، وكان الشيخ محمود كيسًا يتمتع بفراسةٍ بين أقرانه ففطن إلى أن العرَّاف أصبح في ورطة.



كان إذا مرق أحدٌ إلى خلوته يناديه باسم أمه ويعيد عليه ما هو آتٍ لأجله. فلم يكن أمام ذلك الزبون إلّا أن يندهش ويسلّم بأن حاجته سوف تُقَضى وكان العراف يعتمد في جمع معلوماته عن زبائنه على طرق أشبه بالطرق الاستخباراتية التي يتبعونها في الحروب فقد كان يقوم بنشر البصاصين بين تلك الجموع الغفيرة ويعملون على استدراجهم ليسردوا عليهم قصصهم وذلك بعد أن يوهموهم بأنهم أتوا لحاجة مثلهم. بل ويختلقون قصصًا قد تبكيهم وتثير شجونهم.

ولم يلبث العراف كثيرًا حتى بادر بسؤال الشيخين: ما خطبكما؟ ولم يبد اهتمامًا بردهما بل نثر قليلًا من البخور على موقدٍ قابعٍ أمامه فتطايرت سحبًا كثيفة من الدخان عبَّأت سماء المكان وهمهم بكلمات وردد أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ليوحي إليهم أنه يستدعى الأرواح التي سيقوم بتحضيرها.



ربما تكون هي المرة الأولى التي يزور الشيخُ عرافًا ولكنه بادر بالإجابة وأوهمه أنهما أولاد مهنة واحدة ولكنهما يتبعان طرقًا أخرى غير التي يتبعها وأشار عليه أن يدلهما على طريقته فإن راقت لهما أخبراه بطريقتهما المثلى.

تنهد العراف تنهيدة تنم عن ارتياح واطمئنان بعض الشيء. ونثر قليلًا من البخور مرة ثانية وتصاعدت سحب من الدخان ولكنه لم يهمهم بتلك الكلمات ولم يردد تلك الأسماء. واعتدل في مكانه ثم قال:

- نحن نتبع في عملنا طريقتين هما الإيحاء والترويع فإن كان الزبون رجلًا أوحينا إليه أنه سقيم وأنه لن يبرأ إلّا إذا اتبع ما نرشده إليه ونرهقه بطلبات الأسياد ثم نوصيه بطعام مثل أنواع معينة من أسماك البحر والطيور والعسل الطبيعي فإن كان به ضعف سيعينه ذلك عليه، وأما إن كانت امرأة فنزجّ بها في غرفة مظلمة لا يوجد بها أثر لشعاع من نور وفي أركانها رجال أشداء يتقاذفون كرات تشع ألوانًا صفراء وخضراء من ركن

إلى ركن ويهمهمون بأصوات ويأتون بحركات توحي بأن المكان يعمره الجن فيقذف الرعب في قلبها وتخرج منهكة خائرة القوى لا تلوى على شيء.

حينئذٍ أمسك الشيخ بلجام الكلام وقال لصاحبه: أليس من الخير أن يمسك الرجل على زوجته ويتزوج بأخرى وَلُود من أن يلقي بنفسه في شباك شياطين الإنس، وانصرفَا دون أن يخبراه بشيء.

*****

"الحدأة والكتاكيت"

كل ليلة يمر طيفها بخياله وكأنها تُذكِّره بوصيتها على أن يحافظ على العهد الذي قطعاه سويًا في وقت كان فيه أكثر شفافية من أي وقتٍ آخر وكانت هي مودعة لدنيانا فبدا قويًا متماسكًا في بادئ الأمر إلى أن خارت قواه.

فكلما نظر إلى صغاره يرى ملامح أمهم على وجوههم فتدمع عيناه ويسأل نفسه كيف لي أن أعتني بهؤلاء ولديّ آفة بظهري وعرج برجلي والحزن قد هدَّني، ثم دلف إلى غرفته وألقى بجسده غير مبالٍ على فراشٍ لم تمسَّه يد أنثى منذ زمنٍ ليس ببعيد واعتصره الفكر ولم يغادر غرفته إلى وقد اتخذ قرارًا بالزواج.



وكانت تلك التي انحرفت دفة قلبه تجاهها لم تَكد تتعافى من زيجتها الأولى والتي أولدها فيها زوجها ولدًا جميلًا ولكنه آثر أن يمسك عليه ليربو في كنفه فأصبحت بعد طلاقها مهيضة الجناح ولكن لا يخلو قلبها من حقدٍ على زوجها والذي آثر أن يعيش وولده مع أمه من أن يجمعهما فراش واحد.

زُفَّت إلى الزوج المكلوم فسرت الحياة في جسده من جديد وانتصبت قامته وتلاشى ما به من عرج وأصبح مهندمًا أنيقًا نظيف الجسد والثياب وكانت عن عمدٍ تلقي بماء اغتسالها على مرأى من جاراتها النسوة لتشعل

فيهن نار الغيرة فينقلبن على أزواجهن الذين يفرُّون من بيوتهم مع غروب الشمس ولا يعودون إلّا بعد منتصف الليل وهم يتمايلون من أثر الدخان والأنفاس التي سحبوها ثم نفثوها في سماء المقهى وهم لا يلوون على شيء.

مرَّت أيام وأيام تبعتها الشهور ولم تكترث تلك الزوجة بأولئك الصغار بل زادها الحرمان من صغيرها بغضًا لهم وحقدًا عليهم وتركتهم لكبيرهم يقوم عليهم ولكن كيف؟ وهو في حاجة إلى من يمسح برأسه ويربت على كتفيه. وأخذت تلهو هي والزوج الذي نسي سنَّه وأولاده ونقض عهده... أجسادهم نظيفة من كثرة الاغتسال والصغار أجسادهم تئن من الأوساخ التي علقت بها ورائحتهم خير شاهد على ذلك، بطونهم ممتلئة حد التُّخْمة وما تبقى فطعام أولئك الصغار. وفي نشوة الفرح نسيت سيرتها الأولى.



شيء ما يتحرك في أحشائها ربما يكون ثمرة زواجها فهي ولود غير ودود وبمكر أنثوي ساقت عليه الدلال وباتت تتمنع لتلهبه سياط الرغبة حتى إذا أرادت شيئًا أذعن صاغرًا وملبيًّا وإلّا صبت عليه الغضب صبًّا وازداد نفورها من أولئك الصغار وهي تتحسس بطنها فوسوست لأبيهم حتى ضاق بهم ذرعًا وما فتئ أن يسب ويلعن وربما في ثورة غضبه تنال أمهم شيئًا وهي في رحاب ربها وبينما كانت تتهيأ لوضع وليدها كان الصغار هائمين في الطرقات، الأرض فراشهم والسماء غطاؤهم يسألون الناس إما أعطوهم أو منعوهم.

"جزيرة الورد"

صفحات المياه الزرقاء تبدو ملساء إلّا من موجة تهدر نحو الشاطئ فتلطمه ثم تختفي وتعود لتلطمه من جديد وكأنها تعاقبه قوارب صغيرة متناثرة هنا وهناك ويصفع الصيادون وجه الماء بأكف المجاديف كي تهرب الأسماك إلى شباكهم.

وكأنّ الشمس تشاطرهم فقد أضناها التعب من السباحة في يمٍّ السماء تضرب الماء بأيديها وأرجلها ثم تستلقي على ظهرها وتبقى دون حراك إلّا ما يقيها أن تغوص إلى الأعماق. ثم ألقت بنفسها على جريد النخل وأغصان الكافور كي تستريح هنيهة قبل أن يبتلعها الأفق.

وعلى الجانب الآخر نساء يغسلن الأواني والملابس يغنين ويتحرشن بالصيادين وقد بلل الماء ثيابهن فالتصقت بأجسادهن ولاحت من خلفها الهضاب والأودية.



وكان هذا لقاؤنا الأول عن موعدٍ ضربناه من قبل. جمعتنا جزيرة مترامية الأطراف بها أشجار وارفة الظلال. جلسنا قبالة بعضنا على كراسي خشبية حول طاولة دون غطاء وشاطئ النيل منا ليس ببعيد، الطيور تحلق بالقرب منا ثم تندفع نحو الماء تغمس مناقيرها ثم تنزعها وهي محتضنة أسماكًا صغيرة. ومن حولنا أحواض مليئة بالأتربة وتزيّنها

ورود منها الأحمر والأصفر والأبيض وتهيم من حولها فراشات صغيرة ونحل يمتص الرحيق وتتمايل يمنة ويسرة بعد أن يداعبها النسيم ويلثم خدها.

الصمت يلف المكان بردائه وأُلجِمت الألسنة وكأنها تهابُ المكان وتهاب اللقاء وتهاب أعين الناس ثم أحدثتُ شرخًا في جدار الصمت بنحنحة خفيفة قائلًا: نحن هنا، فاستدارت بوجهها فقلت: ما شاء الله، ثم امتطيت صهوة جواد الذاكرة وأطلقت له العنان لأذهب إلى ذلك اليوم الذي لثمه فيه الزيت المغلي وأشكره على أنني كان لي السبق في الإسعاف الأولي وطلائه بكثير من المستحضرات كي تدبّ الرحمة في قلب الألم فيرأف بها ويلملم متاعه ويرحل دون أن يترك أثرًا لزيارته وعانقت راحة كفي ظهر يدها بحنو فجفلت وسحبتها بخفةٍ يشوبها الخوف وعادت الطيور تحوم من حولنا ورفيف أجنحتها يطرب مسامعنا وكأنها تغازلنا والنسيم العليل يصافح أوراق الشجر وتتساقط الأوراق الميتة من حولنا وعلى رؤوسنا ويخيم الصمت من جديد مع لحظات تأمل نستعيد فيها الزمن الخالي. اللسان سلَّم راية العجز إلى العيون فطالت النظرات وذاب الثلج في كأس الليمون.



"الترحيلة"

همس صديقي حمزة في أذني وقال: "فاتك نص عمرك بالأمس".

وبلهفة من يريد أن يعرف أين ضاع نصف عمره ألححتُ عليه أن يقص ما حدث ورغم قصر قامته كان يفوق الثعلب في المكر والدهاء فأخرج من جيبه لفافةً من ورقٍ فضي لامع وفتحها أمام عينيَّ ليثير اللهفة والشوق لديَّ وإذا بها أصناف من الحلوى لا نذوقها إلّا في موسم جني القطن وهي خليط من المِشَبِّك والبصطة والهريسة، وحرارة الشمس قد جعلت العسل يسيل من تحتها، وبعد أن امتلأ فمي باللعاب سيلًا عليها قال: "لقد ذهبت بالأمس مع الترحيلة إلى براري الحفير حيث تستصلح الأرض البور ونقوم بجمع الأعشاب من الأرض المزروعة بالأرز وفي نهاية اليوم يمنحك المقاول أجر يومك قبل أن تغادر".

فأمضيت بقية يومي في حقول القطن نجمع اللُّطع وهي عبارة عن بيض الفراشات تضعها ليلًا على ظهر أوراق القطن وإذا فقس البيض تخرج ديدان صغيرة تتغذى على أوراق وثمار شجيرات القطن ليلًا وعندما تنهض الشمس من مرقدها وتنثر الذهب في الحقول ويجف الندى تختفي الديدان في شقوق الأرض.



وفي صبيحة اليوم التالي ادعيت المرض كي أهرب من الذهاب مع فريق المقاومة اليدوية لديدان القطن ورحمةً بي أبقى عليَّ والدي بالبيت.

تناول الجميع طعام الإفطار بعد أن عاد أبي من صلاة الصبح في مسجد القرية الأوحد وبعد احتساء الشاي باللبن مضى كلّ إلى غابته. ولما اطمأن قلبي لخلو البيت من صوت أبي تسللت حافي القدمين وبين طيات ملابسي منجل صغير ولفافة خبزٍ بها قطعة جبن قديمة وقليل من الكُرَّات وأعددت نفسي في ذلك اليوم ضمن عمال الترحيلة.



كنت حينذاك قد أتممت الثانية عشرة من عمري ولا يليق ذلك العمر للأعمال الشاقة التي يقوم بها الرجال الأشداء ولكن صديقي أفهمني أن لكل عمرٍ ما يناسبه من أعمال فعزمت على المغامرة خِلْسةً ولو علم والدي بذلك لقام بتوبيخي وربما لا أفْلِتُ من ظهر يده وأصابعها الطويلة الخشنة وهي تُطبع على أي جزء من جسمي دون وجهي فقد كان حريصًا لتفادي ضرب الوجه لما يحدث ذلك من ذل وانكسار للمتلقي. وتوافد الجميع من رجال وشباب وصبية وفتيات إلى مكان الانتظار على مدخل القرية الشرقي أعلى الكوبري المطل على النهر وكلّ يحمل زاده ومنجله.



وفي الساعة الثامنة لاحت الترحيلة في الأفق وهي تقطع الطريق تجاهنا فهلل الجميع وقد ضمنوا أجر يومهم وبعد أن توقَّفت وجدتها عربة نقلٍ ضخمة بها ثمانية دواليب ولا يوجد بها إلّا السائق ومقاول العمال إلى تلك البراري من القرى التي يمر بها. تعثر البعض في النهوض إلى العربة وخاصة الفتيات اللائي لا يستطعن ذلك إلّا بمعاونة الآخرين ولكنني

لرشاقتي وخفة وزني تسلقتها كما يتسلق القرد فروع الشجر وبعد أن استويت على ظهرها حمدت الله كثيرًا وأيقنت حينذاك أنني سوف أتذوق الحلوى لا محالة. وانطلقت الترحيلة على شريط ضيق به حفر ومنحنيات كثيرة ومواز للنهر ممًا يتطلب من السائق أن يظلَّ يقظًا على الدوام، وعلت الأصوات فرحة ومهللة والفتيات يرقصن ونحن نردد ورائهن:

يا اللى عالترعة حوّد عالمالح إيدي بتوجعني من عزق إمبارح

يا اللى عالترعة حوِّد عالمالح رجلي بتوجعني من مشي إمبارح

يا اللى عالترعة حوِّد عالمالح ضهري بيوجعني من حِمْل إمبارح

غمرتني السعادة من رأسي العارية حتى قدمي الحافيتين وأنا أمنِّي نفسي بأنني لو ذهبت كل يوم مع الترحيلة ونلت أجرى يوميًا فعند بدء الدراسة سأتمكن من تجهيز نفسي وشراء زيّ المدرسة. قميص وبنطلون وحذاء وشُراب ولا حاجة لانتظار صرف السُّلفة من الإصلاح الزراعي قبل موسم جني القطن وبدأت في عمل حساباتي وسرحت بخيالي بعيدًا حيث اشتريت حقيبة جلدية لحماية الكتب من المطر ومصاريف شخصية تمكنني أيضًا من تناول سندوتشات الطعمية والبطاطس المقلية. وأفاقني من أحلامي صراخ الفتيات وصياح الشباب ولما انتبهت كان الترحيلة تغوص في مياه النهر وعناية السماء هي التي أنقذتنا جميعًا من الغرق وعدت متسللًا إلى البيت خشية أن يُفتضح أمري. آويت إلى الفراش ولمّا سمعت صوت أبي علا صوت أنيني وادعائي للمرض.

*****

"خارج الأسوار"

"والله بريئة يا بيه!"

ولم يكن لدى زينب ما تقوله غير ذلك في سراي النيابة فسيقت إلى السجن وهناك خلف الأسوار وفي هدأة الليل حيث يخيم الصمت على أرجاء المكان والظلمة طغت على ضوء القمر رفعت زينب يديها إلى السماء تناجي ربها وتثني عليه: "يا ألله. يا واحد يا أحد. يا فرد يا صمد. يا من لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوًا أحد، أسألك باسم حبيبك المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام أن تفرّج كُربَتي وأن يُولَدَ هذا الطفل بعيدًا عن هذا المكان كي لا تظل لعنة محل ولادته تلاحقه أينما كان".

وكأن الملائكة قد أمَّنتْ على دعائها وكان فرج الله قريبًا. واكتمل حملها بعد أن كان بضعة أسابيع وبرِّئت من قتل مخدومتها تلك العجوز الثرية بعد أن عُثِرَ على الجاني وهو ابن شقيقتها الذي ترعرع في كنفها بعد أن ماتت أمه.



وهذا سلامة وقد وهبته زينب بعض ما لديها من مالٍ قد ادخرته نظير عملها كخادمة في بيوت الأثرياء بعد أن هجرت قريتها لضيق الحال كي تسعى على أمها التي حذرتها مرارًا من التعلّق بحبال واهية والجري خلف السراب فهي ليست لسلامة ولا هو لها.

ولكنها صمَّت آذانها عن تلك النصائح وأصغت لنداء القلب. وكما يأكل الذئبُ من الغنمِ القاصية خدعها سلامة بمعسول الكلام وجرَّها لزواج عُرفي لم تكن تريده ولا ترغب فيه. ولكنها أذعنت صاغرةً باسم الحب وبعيدًا عن أعين الأهل التقته وهي عارمةُ الشهوة وأثمر ذلك عن شيءٍ في أحشائها. ولما قضى منها الوطر عاد إلى رشده وأيقن حينذاك أنه أصبح في ورطة.



وكان حمدان كلَّاف المواشي في دوَّار العمدة يقضي يومه بين السُّقيا وحشو المزاود بالتبن وفي القيلولة يخلد قليلًا للراحة في غرفة جنوب "الذرائب" أريجها يفوح من روث الماشية. ولكنه كان سعيدًا وسلامة يجلس بجوار ابنة العمدة "هانم" على مقاعد الدراسة بالجامعة يدرسون الأدب الإنجليزي ويقرؤون لشكسبير ويحثُّه دائمًا على التقرّب منها والتطلع إلى أعلى ليرى العمدة أن لا فرق بينهما والرؤوس قد تساوت.

وكان سلامة فصيح اللسان، لحديثه حلاوة. ولما اُستدعِيَ من قِبلَ العمدة لمخاطبة طياري طائرات الرش القابعة بالقرب من مدخل القرية وسمع حديثه وقف مشدوها وهو يُطوِّع لسانه كما يشاء وكأنه يستمع إلى حفيد الملكة إليزابيث في حوارٍ تليفزيوني وليس لسلامة بن حمدان كلاف المواشي. وكان لعمل سلامة ترجمانًا ومرشدًا سياحيًّا بجوار الأهرامات كبير الأثر في ذلك.

❖ ❖ ❖

ولما افتضح أمر الزواج أحرق سلامة الورقة بعد أن احتال على زينب وسلبها منها وطلب منها أن تجهض حملها وتقطع كل صلة به. ولكنها أبت وأصرَّت على الاحتفاظ به حتى لو أنكره ستهبه حياتها فهو ثمرة زواج وليس ولد سفاح.

وبعيدًا عن الأسوار جاءها المخاض وأحاطتها عناية السماء فهيَّأت لها من تقوم على رعايتها. وصرخ محمد في وجه الدنيا وهو لا يدري ما الذي يبكيه؟ أهو نكران البنوة من أبيه؟ أم الحظ العاثر الذي أتى به إلى دنيا تفشَّى فيها الظلم، وحملته بين ذراعيها ومشت الهوينى ونظرت إليه وقالت له: "لولا خوفي عليك لكان السجنُ أحبُّ إليَّ مما ينتظرني من ذلٍّ وعارٍ وفقر"، وألقمته ثديها كي يكف عن البكاء.

شدَّها الحنين إلى أمِّها ولكن كيف ستواجه أهل القرية بطفلها وهم لا يعلمون أمر الزواج. فأمُّها تعرف الزوج وأهله، ووالدا الزوج قد جاهداه كثيرًا أن ينفض غبار تلك الزيجة من فوق كاهله كي لا يزدادوا فقرًا على فقرهم. وهي وحيدةٌ في مهب الريح لا دليل إثباتٍ لزواج ولا شهود تعرفهم. حتمًا سيلوكون سمعتها وشرفها. فماذا تفعل؟ هل توافق على طلب عوض البواب لزواجها للتستر عليها لأنها تسكن قلبه منذ كان يعمل معها في نفس العمارة التي كانت تخدم بها؟ ولكن كيف وأبوه على قيد الحياة؟ أم تشير إليه ليكلمهم في مهده ويدلهم على أبيه؟

ولكنه ليس عيسى ولا هي بمريم.

*****

"فوزية"

ما زالت معالم ذلك المكان محفورةً على جدران الذاكرة حيث تدب الحياة مع انبلاج الصبح.

العصافير تزقزق وتتراقص مغنيةً على أغصان الشجرة الباسقة على شاطئ الترعة المجاورة لمحطة القطار.

الشمس تنهض من مرقدها لتمسح وجه الدنيا بأشعتها الذهبية كي يخرج أهلها إلى معاشهم.

الكل في عملٍ دؤوب.

بائع الصحف صوته يجلجل: أخبار. أهرام. جمهورية.

عُمَّال المخابز يحملون أقفاص الخبز فوق رؤوسهم ويشقُّون بدراجاتهم زحام الشوارع.

صبيُّ المقهى يُرتب الكراسي ويرش الماء ثم يعبث بمؤشر المذياع الخشبي الإطار لتصدح فيروز بأغنية سيد درويش:

"طلعت يا محلا نورها شمس الشمُّوسة ❖ يلا بينا نملا ونحلب لبن الجاموسة"

بائع العرق سوس يحمل الجرَّة على جنبه الأيمن وبيده صاجات يضربها ببعضها فتصدر صوتًا جميلًا. وينادي: "خمير وشفا أروي عطشك برد على قلبك"، ويعجبك قوله وفعله وهو يميل جانبًا بجرته ليملأ الكأس.

بائع الفاكهة أمام العربة الخشبية والنحلُ يحومُ من حولهِ ويحطُّ على أقفاص العنب.

وكان وجود فوزية يضفي بهجةً على ذلك المكان؛ فهي صبيةٌ يزيد عمرها عن العشرين قليلًا ظهرت فجأة كأنها نبتة شيطانية انشقَّتْ عنها الأرض، وهبها الله الجمال وسلب منها العقل. فهي لا تدري من أين أتت؟ ولا أين أبواها؟ ولا تعي بما تفعله الأيام. وربما يكون قد ساقها القدر كما تنساق أوراق الشجر الميتة مستسلمةً أمام الريح. نهارها سعي دائم هنا وهناك تتغنى بكلامٍ لا يفهمه مَنْ حولَها. يتحرش بها الصبية. يركضون من خلفها ويرجمونها بالحجارة وهم يرددون: "فوزية الهَبْلة آهيه.. العبيطة آهيه".

فتفُّر مذعورةً أمامهم وكثيرًا ما تتجرَّدُ من ثيابها فتثير عاطفة المارة فينهرون الصبية ويسترون ما لاح من جسدها.

اختلف الناس على تصنيفها؛ فريق يقول: إنها بركة ومجذوبة ويبرّون بها، وفريق آخر يقول كما يقول الصبية: إنها عبيطة ومجنونة، ويظل الناس على اختلافهم ويمضي النهار وتغيب الشمس وتستبد الظلمة بالشارع وتتكوَّر فوزية على كومة قشٍ بجوار جذع الشجرة المجاورة للمقهى والباسقة على شاطئ الترعة وكأنها عصفور من لحم.



كانت كثيرًا ما تختفي ثم تعود ولم تكن الحياة تتأثر بغيابها أو حضورها. الكل في عملٍ دؤوب. بائع الصحف، عمال المخابز، بائع الفاكهة،

صبي المقهى وبائع العرقسوس، وقد اعتاد الناس على ذلك. ولكن هذه المرة وبعد غيابٍ طال عن ذي قبل لاحت فوزية في الأفق ولم تكن كعادتها نشيطة تنتقل هنا وهناك كالفراشة. ولكنها أصبحت كسولةً خاملةً تقضي جُلَّ وقتها في النوم.

تغيَرت ملامح جسدها؛ الوجه شاحب، البطن منتفخ. والأقدام حافية وعارية ومتورمة. وكما اختلفت الناس على تصنيفها. اختلفوا أيضًا في تفسير ما حدث لها فريق يضرب كفًّا بكفٍّ ويقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة إلّا بالله. فعلوها أولاد الحرام. ربنا هو المنتقم الجبَّار.

وفريق آخر يقول: الذئاب تشتهي أكل اللحم ولا تخرج من مخابئها إلّا في الليل للبحث عن فريستها. وربما يكون قد استدرجها أحدٌ إلى مكانٍ بعيد عن أنظار الناس وسقاها شيئًا غيَّبها عن وعيها وفعل بها ما فعل بعد أن زيَّنها الشيطان له.

وهي لا تعي ما ألمَّ بها ولا ما أصبحت عليه ولا أي مصير ينتظرها. يختلف تفسير الناس لما حدث ولكن الحقيقة الثابتة أن ما في بطنها ثمرة خطيئة.

وتمضي الأيام يومًا بعد يوم واعتاد الناس على فوزية في شكلها الجديد. والصبيةُ عادوا للتحرش من جديد. يلتفون من حولها ويرددون "فوزية الهَبْلة. حُبلى" وهي لا تقوى أن تصدَّهم ولا تفر من أمامهم فتقف مستسلمةً حتى ينتهوا من عبثهم ثم يتركونها وينصرفوا.

ولم يكن ذلك الصباح مثل أي صباح مضى. الكل على غير عادته. بائع الصحف لم يجلجل صوته. بائع العرقسوس لم يحمل الجرّة. صبي المقهى لم يرش الماء وترك الكراسي متناثرة غير مُرتبة. الشمس تغطُّ في نومٍ عميقٍ فوق الغَمام ولم تصدح فيروز بأغنية "طلعت يا محلا نورها" وتحت الشجرة الباسقة على شاطئ الترعة المجاورة لمحطة القطار أُناسٌ يتحلقون حول شيء ما.

استبد بي الفضول فعدت أدراجي لأستكشِفَ سرّ تحلقهم وكانت المفاجأة. وهالني ما رأيت.

فوزية وضعت طفلها في العراء على كومة قشٍ ودثَّرته بثوبٍ بالٍ. ضمته إلى صدرها ولما اشتد صراخه ألقمته ثديها.

*****

"شراب الكُحّة"

كان عباس يجوب شوارع القرية بثيابه الرَّثة يتدلى من كتفه حقيبة من القماش السميك. وجههُ ويده بهما آثار هبابٍ يلمع إذا تدحرجت عليه حبات العرق تحت وهج الشمس ويتغنى: "(نصلح وابور الجاز) فتدرك ربات البيوت أن عباس قد وطئت قدماه أرض القرية فيجهزن ما لديهن. وبعد أن يُنهي دورته بالشوارع يلجأ إلى الركن الظليل من الناحية القريبة للصيدلية. يفترش قطعة قماش ويتربع أمام أدواته كي يبدأ يومًا جديدًا. وتتهافت عليه النسوة لإصلاح "بوابير الجاز" التي يستعملنها في طهي الطعام بدلًا من أعواد الحطب ولفافات القش التي تُدس في الكوانين.

ولا أدري ما سر اختياره لهذا المكان، ولكنني لم أعِره اهتمامًا وتركته وشأنه يستظل من القيظ فلم يلبث كثيرًا حتى وجدته ماثلًا أمامي يضع كفه الأيمن فوق صدره مدعيًا أنه يعاني من كُحة جافة تلازمه طوال الليل ولا تدعه يهنأ بنومٍ. وكل هذا من أثر الجلوس أمام اللهب واستنشاق الأبخرة الناتجة عن لحام القصدير والبلاستيك.

ثم بادر بطلب دواء "تو سيفان" وشدد على النوع العادي وذلك لوجود نوعين من هذا الدواء أحدهما عادي وهو الذي يحتوي على مادة الكودايين والآخر "إن" يوجد به مادة أخرى لا يرغب فيها فأجبته طلبه ثم تجاذبنا أطراف الحديث وعلمت أنه يسكن مدينة بلقاس وأنه متزوج ولديه زوجة وثلاثة أبناء كبيرهم في السابعةِ من عمرهِ وصغيرهم لم يكمل عامه الأول. وتلك المدينة تبعد عن قريتنا ما يزيد عن العشرة كيلومترات.

وفي اليوم التالي. هبط كعادته على ذلك المكان وقبل أن يفترش قطعة القماش انتصب أمامي وكرر طلبه مدعيًا أنه فقد زجاجة الأمس في أثناء عودته بعد المغرب ولم يتناول منها إلّا جرعة واحدة ملء الغطاء. فأجبته طلبه ولم نتبادل أي حديث في ذلك اليوم.

وفي اليوم الثالث كرر الطلب نفسه ولكن هذه المرة لم يكن لديه أي عذر فبادرت بسؤاله.

❖ أراك تتناول هذا الدواء بكثرة؛ هل أنت متعود عليه؟

❖ نعم أتناوله منذ عشر سنوات وقبل زواجي.

❖ وما الذي دفعك إلى هذا؟

❖ هذه قصة طويلة.

❖ أريد أن أسمعها إن لم يكن لديك مانع.

❖ كنت قبل ذلك أتعاطى الحشيش وكان دخلي اليومي يفوق الخمسة جنيهات وكنت أُضيعُ هذا كله على المزاج. تعميرة حشيش وكرسي معِسل وفي سبيل المزاج كنت أبخل على زوجتي حتى نشب الخلاف بيننا. وبعد أن دلَّني أحد الرفاق على ذلك الشراب وجدته يُوفي بالغرض وأقل تكلفة من الحشيش حيث لا يتعدى ثمن الزجاجة الخمسين قرشًا. وعدت للإنفاق على بيتي وزوجتي وبتنا نأكل اللحم والسمك والكوارع.

❖ ولكن هذا الشراب له أضرار كثيرة على الأعصاب والكبد.

❖ بلاء أخف من بلاء.

ودأب على شراء الزجاجة يوميًّا. وربما أكون قد تعاطفت معه فلم أمنعه.



وبينما كنت أرقبه وهو نشيط في عمله جالتْ بخاطري فكرة فأردت أن أقارن بين ما تختزنه ذاكرتي من معلومات عن الفارماكولوجي والإدمان وبين الأعراض التي تظهر عليه إذا توقف عن الشراب وعزمت على تنفيذ الخطة.

وفي صباح اليوم التالي وبعد أن تهيأ للعمل جاء ليكرر الطلب نفسه ولكنني أبديت أسفي واعتذاري لنفاد الرصيد وأنه سوف يتم توفيره خلال يوم أو يومين على الأكثر. وألقيت نظرةً قصيرةً على وجهه فإذا به مكفهرًا عابثًا عليه أمارات الحزن وكأنني نقلت إليه نبأ وفاة عزيز لديه.

ثم استدار ولم ينبس ببنت شفة. وعاد ليتربع أمام أدواته والنساءُ من حولهِ. فهذه تريد تغيير "فونية للوابور"، وتلك تريد إصلاح الرِّجل التي انكسرت وأخرى تحمل بيديها حذاءً بلاستيكيًّا طويل العنق يستعمله زوجها في أثناء تنظيف حظيرة المواشي.

وإذا به يمسك بالوابور ويضربه في الأرض بشدةٍ وكأنه يعاقبه. ثم يلعن كل البوابير ومهنة إصلاح البوابير. ولم يشعل اللهب. وارتعشت يداه وثقل لسانه وتفصَّد العرق من جبينه. لملم أدواته وعلَّق حقيبته في كتفيه وعاد أدراجه. ربما إلى مدينته التي ودَّعها في الصباح أو إلى بلدٍ آخر قد يتمكن فيه من الحصول على شراب الكُحَّة.

*****

"العزاء"

بَزغَتِ الشمس واكتسى الكون بثوب النهار. وصوت الميكروفون يعلو ليُبَدد بقايا الصمت الرابض في الشوارع، وأهل القرية بين مُصَلٍّ للصبح وحالب للمواشي.. تُرْهَفُ الآذان. ويقولُ مَنْ انتبه: "يا فتَّاح يا عليم، يا رزاق يا كريم، اللهم اجعله خيرًا".

وينادي المنادي: "بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم "كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت"، انتقل إلى رحمة الله سبحانه وتعالى الحاج. محمد حسن. وستشيَّع الجنازة بعد صلاة العصر. والبقاء والدوام لله".

ويكررها ثلاثًا لتأكيد الخبر.

وتعلو الشمس قليلًا وتمتد خيوطها لتمسح القرية وتربت على كتفيها وتقدم لها العزاء في فقيدها الذي طالما سعى وراء كل ما يلزمها من محطة مياه الشرب والصرف الصحي ورصف الشوارع. واستثمار العلاقات الوطيدة بصناع القرار في المحافظة والمجلس المحلي.

وتنشق الأرض عن نسوة يتَّشحنَ السواد يأتين من أطراف القرية ووسطها. يَجُبنَ الشوارعَ صامتاتٍ وعندما يقتربنَ من منزل الفقيد. تجد منهن النائحاتِ المعدداتِ وتجد أيضًا الذاكراتِ لله والمسبحات بحمده.

ويرتفع صوتٌ من ركن هادئ وكأنه يحاكي نفسه "يقولون إن الموت للعجائز"، وتردد أخرى: الموت يختار زبائنه والمرحوم زينة الشباب. ووقعت عليه قرعة الاختيار. الله يرحمه. ويَعُدْنَ للبكاء.

❖ ❖ ❖ ❖

وقُبَيْلَ صلاة العصر نهض الجميع من أماكنهم المتراصة بجوار جدران المنازل التي اكتست بالظل، وعندما لاح الجثمان في الأفق ردد الجميع: "لا إله إلّا الله".

صوت الإمام يعلو: صلاة الجنازة يرحمكم الله.

التكبيرة الأولى. الثانية. الثالثة ويدعو الجميع للميت المُسجى أمامهم ثم التسليم. وكلمات وجيزة عن الجنة والنار وعذاب القبر.

ويُحْمَلُ على الأعناق ليُزف إلى مثواه الأخير والجميع من خلفه. يُخيمُ الوجوم على بعضٍ ويسأل نفسه: "تُرى ماذا يحدث لو كنت أنا اليوم محمولًا على الأعناق إلى ذلك المصير وأنا لم أستعد للقاء ربي؟"، فيمتلكه الزهد في الدنيا وما عليها. وسرعان ما يعود إلى طبيعته عندما يرى زوجته وأولاده. كما تجد أناسا يثرثرون ويتناقشون في شئون الدنيا وأعمال الحقول.

ويُهَالُ التراب. تُقْرأ سورة "يس" وترفع الأكف بالدعاء:

"اللهم أَحْسِن نُزلَهُ ووسِّع مُدْخَله. اللهم ثَبِّتهُ عند السؤال، اللهم اجعل قبرهُ روضةً من رياض الجنة. اللهم أبدِلْهُ دارًا خيرًا من داره وأهلًا خيرًا من أهله".

ويؤمن الجميع ويولون مدبرين ويبقى وحيدًا لا يصحبه إلّا عمله وقد تركه المال والولد والصُّحْبة وهو يسمع قرع نعالهم.



وفي السرادق المقام في وسط القرية يتربع القارئ على أريكة مزركشة تعلو المقاعد من حولها ومن أمامه مشروبات ساخنة، وماء بارد ويتلو ما تيسَّر من سورة "ق".

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق: ١٦-١٩].

فيشرد كل بخياله ويمتطي جواد الذاكرة.

فمنهم من يتذكر أباه وكيف تركه صغيرًا دون سندٍ لتفعل به الدنيا الأفاعيل.

ومنهم من يتذكر أمه وكيف اشتاق إلى حضنها.

وأب مكلوم كَسَره الزمن بعد رحيل ولده في ريعان شبابه.

فتدمع الأعين ويظن الناظر إليهم أنهم يبكون الفقيد ولكن كلّ يبكي على مصابه.



ينفض العزاء ويمشي كلّ إلى غايته. يحتضن الأب أولاده ويدلل زوجته ويحمد الله لأنه ما زال يمتع ناظريه بالمال والولد.

ويجتمع الورثة لحصر تركة المرحوم والتي تتمثل في عقارات وبيوتٍ وشقق سكنية وأرصدة في البنوك. فتجارة العقارات تجارة رابحة وسأل سائل: ماذا سيتبقى لنا فلزوجته الثمن ولابنته نصف ما ترك؟

ويرد عليه آخر: ما سيتبقى الكثير. واحمدوا ربكم أنه لم ينجب الولد. لكنتم الآن محرومين؟

وفي زحام الأحلام بالميراث نسي الجميع ابنة المرحوم التي كتب عليها اليتم رغم حداثةِ سنِّها فنظرة في عيونها الممتلئة بالانكسار والحزن كفيلة بأن تمزق نياط القلب.

*****

"الأعرج"

إبراهيم سعيد. طالب بالصف الأول الثانوي يُكَنَّى بين زملائه... "برهومة الأعرج" وجهه به غمازتان ضاحكتان والبسمة لا تفارق شفتيه إذا رأيته ماشيًا يشق زحام الطريق ورجله اليمنى مشدودة بجهاز أجوف تدرك مدى المعاناة في مشيته فينفطر قلبك حزنًا عليه.

ولَمَّا كان يجاورني في المقعد المجاور للشباك المُطِّل على الطريق العام. والذي يفصل بيننا وبينه حديقة صغيرة نسق العامل شُجيراتها وكساها الربيع بألوان الزهور. فاتخذت منظرًا خلابًا كنا نتسابق للنظر إليه إذا ما داعبت أنوفنا الروائح الذكية التي تهديها إلينا النسمات الحاملة بين الفينة والأخرى.

شيء ما يساورني أن أعرف حكاية تلك الرِّجل المحشوة في ذلك الجهاز والذي يبدو لي ولكل المحيطين أنها سبب شقائه. ترددت كثيرًا في بادئ الأمر ولكنني استجمعت قواي ولملمت ما تناثر حولي من شجاعة وبادرته بالسؤال: أبو خليل، ثم احمر وجهي وثَقُلَ لساني حرجًا ولكنه قرأ في عينيَّ السؤال والذي كان على طرف لساني وقال:

- تريد أن تعرف حكاية رِجْلي.

فغلبني الصمت.

- اسمع يا أبو الأمجاد. حكاية رجلي قديمة مرَّ عليها الآن أكثر من خمسِ سنواتٍ ومنذ أن كنت في العاشرة من عمري. كنا جميعًا صبية الحارة

نعبر شريط القطار المجاور لمنازلنا لنستحم في الترعة الممتدة على الجانب الآخر. وكنا نتسابق في سرعة المرور أمام القطار بعد أن يغادر المحطة وتكون سرعته ما زالت بطيئة حتى يغادر المنطقة السكنية دون أن نهتم بصافرته التي تعوي وتقض مضجع النائمين. ذات مرة وأنا أفعل ما أفعله كل يوم والقطار يزحف ويتلوى كالثعبان يزيد من عوائه كلما اقترب إلينا ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك في تلك اللحظة حمدت الله على أن قريتنا لا يمر بها القطار. فكنا نطفئ لهيبَ الشمسِ بمياه الترعةِ دون خوفٍ من قطارٍ أو سيارةٍ. فالطريق المجاور للترعة يكثُر به عربات الخيول والحَمير. تارة مُحَمَّلةً. وتارة فارغة نتعلق بها من الخلف ونداعبُ العربجيّ ونقول له: "كُرْبَاج ورا يا أسطى".



لم يكن برهومة منطويًا على نفسه ولم تثنِه تلك العاهة عن ممارسة حياته الطبيعية وكان حامدًا شاكرًا لله على أنه ما زال على قيد الحياة ولم يلحق برفيق صباه "عَلِيّ" الذي دهسه القطار وكأن الله قد أسكن الرضا والطمأنينة في قلبه.

ففي حصة التربية البدنية "الألعاب" تعجبُ عندما تراه يمسك بالكرة ويدور حول نفسه ويرمي بها لزملائه ويُغَيِّر مكانه ويلتقطها مرة ثانية ويقف بثباتٍ وثقة ويرمي بها ناحية السلة مُصوِّبًا فتسقط فيها ويُهلل

الجميع. ويزداد عجبك عندما تراه يقفز فوق الحصان الخشبي. وفي غرفة بناء الأجسام يستلقي على ظهره ويرفع ما يتحدى به زملاءه من أثقال.

وفي يوم الخميس همس في أذني:

- أبو الأمجاد. هل رأيت فيلم "حمام الملاطيلي"؟

أجبت بالنفي.

لم ينبس ببنتِ شفة. ولكنه أشار بإبهامه الأيمن إلى أعلى دلالةً على ما به من مشاهدَ تخاطبُ غرائزَ الشبابِ.

ثم عاد وقال: لا بد من "الزوغان" قبل انتهاء اليوم الدراسي كي ألحق بالحفلة من أولها. اليوم نهاية الأسبوع وسيكون الزحام على أشده. ولكن كيف. والعم جبريل قد أوصد البوابة بالقفل والسلسلة وجلس أمامها يلُفّ سجائره وينفث الدخان في الهواء. يشفط الشاي الثقيل المحلى بالسكر وكأنه سجّان.

أومأ برأسه وكأنه قد وجد طريق الخلاص ولكنه لم يفصح. ولم أستطع أن أقرأ أساريره ولا تعابير وجهه.



رنَّ جرس الفسحة. تدافع الطلاب وعلا صراخُهم في الطرقات. هبطوا السلَّم وانتشروا في الفناء. البعض اصطفَّ أمام "الكانتين" والبعض الآخر ذهب ليستعطف العم جبريل ليسمح لهم بشراء سندوتشات الفول والطعمية من المطعم المقابل للمدرسة ولم يزد في كلامه عن كلمة "ممنوع".

تأبَّط برهومة حقيبته وهبط السلم مستعينًا بالدربزين ثم نأى جانبًا وتوارى خلف الأشجار المجاورة للِسور حتى لا يشي به أحد من زملائه ويقع في قبضة العم جِبريل. ويبدو للناظر من بعيد كما لو كان يريد قضاء حاجة بعيدًا عن رائحة الدخان المختلطة بروائح دورات المياه.

وأشار من بعيد فتوجهت إليه. فناولني حقيبته ثم وثب وتمسك بقضبان السُّور الذي يفوق ارتفاعه الثلاثة أمتار حتى خِلْتَهُ قردًا يقفز على فروع الأشجار. ثم استجمع قواهُ ولفَّ جسمه كقطعةٍ واحدةٍ وأصبح في الناحية الأخرى كبهلوان في سيرك. وأنا أنظر إليه مشدوهًا فاغر الفم غير مصدقٍ لما حدث ولكنه قطع دهشتي وأخذ حقيبته ثم قال: يوم السبت سأحكي لك قصة الفيلم.



"لعب عيال"

سَبَحَتْ الشمسُ في يَمِّ السماءِ وأعلنتْ وقت الظهيرة. صوتُ المؤذِّن الضرير ينادي للصلاة. هشَّ الرُّعاةُ على أغنامِهم وأناخوا مطاياهم تحت ظل شجرة الكافور العتيقة الباسقة على شاطئ الترعة. وضع أهل القرية ثيابَهُم لينعموا بقيلولةٍ تريح الأبدانَ من عناءِ يوم يبدأ مع ولادة أولُ خيطٍ من خيوطِ الشمس. شوارع القرية بدت خالية إلّا من بعض الصِّبْيَة الذين آثروا اللعب على الخلود للنوم فتارةً تجدهم يلعبون الاستغماية ويختبئون وسط أكوام القمح المُكدَّسَة في الشوارع والأجران. وتارة أخرى يركضون خلف الكلاب يعبثون بها في فجوات الحي. وبين اللعب والعبث لاح أمام أعينهم ثعبانٌ أصفرُ لمع جلدهُ الناعم تحت أشعة الشمس. يبدو وكأنه خرج للتو من جحرِه. انكبّوا عليه يطاردونه. فصبية الحارة لا يخشون الثعابين. فقد اعتادوا رؤيتها في الحقول والمنازل وفي جيوب الرِّفاعي وهو يعزف لها بنِايه فتخرج متراقصة على الألحان مع أن الثعابين لا تسمع. واستمر الصبية في مطاردتهم حتى هرب منهم واندسَّ في أكوام القمح.

فقال قائل: "هيا بنا نشويه"، ولم يترك فرصة لرفاقه لإبداء الرأي. وأخرج من بين طيَّات ملابسه "كبريت" ثم أشعل عودًا وألقاه على كومة القمح. وصاح أحد الرفاق. القمح ولَّع!

فردَّ عليه: "خلِّيه يولَّع!".



الأهالي يتدافعون لإخماد النيران ويردِّدون بين خوف ورجاء: "استرها يا رب. الطف بنا يا رب".

النساء والصبايا يصرخن ويُولوِلنَ وهن يَجلِبنَ الماء من الترعة.

النار تأكل بنهمٍ ورجال الحي يناولونها الماء لتروي ظمأها.

سحب من الدخان الأسود تركض بخوفٍ في الفضاء. ويعلو صوت فوق صراخ النساء والأطفال.

"المطافئ".

فيصمت الجميع وكأنهم يسمعون هذه الكلمة لأول مرة.

ثم علت الأصوات مرة واحدة: المطافئ.

خراطيم المياه تضخ الماء بقوة على النيران التي علقت بالمنازل حتى تهاوت الجدران الطينية. وخمدت النيران وهام الناس على وجوههم. الحسرةُ تملأ قلوبهم. الدموع محدقة في عيونهم. والهباب يغطي أجسادهم. يمشون بخطى متثاقلة وأنظارهم متجهة إلى منازل احترقت بها الثياب والأرزاق ولم يتبقَّ إلّا لباس الجوع والخوف ونقص من الثمرات.

*****

"الفرح"

كانت ليلة غير مثيلاتها من الليالي السابقة. الشوارع في حُلَّةٍ جديدة. الأضواء بددت الظلمة التي جثمت على صدر المدينة بعد أن تدحرجت كرة الشمس في أفق الخلود. الضوضاء شرخت جدار الصمت الذي اعتاد على مسكنه في بعض الأماكن.

خرجت كعادتي على غير هدى بعد أن أنهيت الأعمال المُوكَلة إليَّ في خدمة أشقائي بعد إتمام العام الدراسي.

أيقنت حينذاك أنّ شيئًا جديدًا حلَّ بحارتنا في تلك الليلة فأرخيتُ أذني لاستراق السمع عسى أن يتهادى إليها لحن جميل من حفل ساهر... وعلى مرمى بصري رأيتُ مسرحًا قد نُصِبَ في زُقاقٍ غير بعيد... الصبية يلعبون ويتسابقون.. الباعة يعرضون بضاعتهم ويدلّلون عليها. الفرقة الموسيقية اتخذت مكانها على المسرح كلّ حسب دوره وأهميته.

ومن أمامهم مطربُ شاب يتبختر ويتمايل، وراقصة ليس على جسدها ما يواري سوءاتها. دسست نفسي وسط الزحام غير مبالٍ بدعوة فرح أحسب نفسي على أهل العريس تارة وأخرى على أهل العروس. فقد زادني التسكع حنكَة وخبرةً، اتخذت مكاني في الصفوف الأولى المجاورة للمسرح وفي ركنٍ مُظلمٍ غير بعيد كان هناك ثُلَّة من الشباب يلتفون حول طاولة مستديرة يدخنون الشيشة وينفثون سحبًا من الدخان سرعان ما تتلاشى. ولكن

رائحة غريبة تسللت إلى أنفي تختلف عن رائحة الشيشة التي يدخنها أخي وقت القيلولة. وتنامى إلى مسامعي من أحد المجاورين لي أن الشيشة بها تعميره وما أولئك إلّا جمع من الحشاشين قد أتوا ليضيعوا ما جمعوه في نهارهم من أعمال السباكة والكهرباء وحرفٍ أخرى على مزاجهم... فتراهم آخر الليل سكارى يترنحون وتلعب الريح برؤوسهم فلا يدركون ما يفعلون.



ينتفض الشباب مهللين وكأنهم استشعروا بداية الحفل ولم يَطُل انبهاري كثيرًا بما يفعلون حتى رأيت مطربًا أنيقًا يعتلي المسرح وبدأ يشدو بأغنية كارم محمود:

عنابي ❖ يا عنابي ❖ يا خدود الحليوة

عنابي ❖ يا عنابي ❖ يا رموش الحليوة

يرضيكوا الحليوة يسيبني ❖ للنار اللي هاتدوبني

إيه قصده الحليوة ❖ إيه قصده الحليوه.

فتهب الراقصة من مكانها وكأن عقرب لسعتها تتلوى وتتمايل ذات اليمين وذات الشمال حتى يُخيَّلَ إليك أن جسدها خاليًا من العظام وقد لاحت سوءاتها أمام أعين الشباب فازداد التصفيق والصفير ثم بدأت تشدو بأغنية أم كلثوم ردًّا على ذلك الذي يغازلها.

لسه فاكر قلبي يديلك أمان ❖ ولا فاكر كلمة هاتعيد اللي كان.

ولا نظرة توصل الشوق والحنان ❖ لسه فاكر

كان زمان ❖ كان زمان.

كانت الأيام ﴿ قلبي دموع بتجري ❖ وأنت تحلا لك دموعي وهي عمري.

واحتدمت المبارزة بينهما وكأنهما عاشقان قد تعاهدا على إلّا يفترقا. ولكن شيء ما حدث بينهما. فافترقا وأبوا إلّا يتصالحا.

يعلو صوت المزمار.. تُدَقُّ الطبول. يُقْرَع النحاس ويموج الناس ويتسلل اللحن الجميل إلى أذنيَّ فيطربني وأجدني أفعل كما يفعلون.

وتموت الزغاريد ﴿ حلوق النساء... تطفأ الأنوار. فألملم ما تبقى مني وأعود أدراجي إلى تلك الغرفة.

عبر شوارع وأزقة ضيقة كستها ظلمة الليل. الصمت يخيم على أرجائها. يتهادى إلى أذنيك بين الحين والآخر نُبَاح كلب يبحث عن طعام ﴿ جوف الحي. أو صياح ديكٍ قد استيقظ من نومه فزِعًا يحسب أن وقت الفجر قد حان.

الغبطة تتملكني وأسأل نفسي وأُجيب. لا مقارنة بين أفراح قريتنا وأفراح المدينة. ﴿ القرية ينتهي كل شيءٍ بعد صلاة العشاء بقليل أما هنا تمتد الأفراح على صفحات الليل حتى يبزغ ضوء الفجر ويمسحها بطرف لسانه.

*****

د. مجدي سراج

"الهدية"

اليوم الحادي والعشرون من مارس "آذار" لعام ألفين وخمسة عشر "عيد الأم"

وفي البيوت المجاورة تصدح "فايزة أحمد" عبر المذياع بأغنية سِت الحبايب.

ست الحبايب يا حبيبة ❖ يا أغلى من روحي ودمي

يا حنينة وكلك طيبة ❖ يا رب يخليك يا أمي.

ويلتف الصغار حول طاولة تتوسط الصالة. البراءة تغشى وجوههم. يفكرون ويتشاورون في أمر الهدية التي يرغبون في شرائها هذا العام. عوضًا عن هدية العام الماضي المتواضعة...

العام الماضي كانت المدخرات قليلة ولكن أمي تستحق أغلى هدية في الدنيا. وبدأ الكل يكشف عن مدخراته.

قالت أريج: لدي خمسمائة جنيه.

وقال عمر: لديّ سبعمائة جنيه.

أما الصغيرتان مُنى وعلا فتنفقان مصروفهما على شراء الحلوى ورقائق البطاطس.

ويمسك عمر بطرف الحديث ويسأل: ماذا نفعل بمبلغٍ كهذا؟ هل نشترى مكنسة كهربائية لتنظيف السجاد؟

فترد أريج: لا.. لديها واحدة أحضرها أبي في أثناء سفره وقد سمعته يهمس في أذنيها ويحثها على الاحتفاظ بها لِشوارِي.

- هل نشترى لها فستانًا؟

هي: لا.. فخزانة ملابسها مكدَّسة بعباياتٍ لم ترتدِها بعد.

- إذًا.. ماذا نفعل؟

ران الصمت على المكان وكلّ يقدح زناد فكره ويعتصر مُخه عسى أن يتمخض عن فكرةٍ جديدة

وفجأة صرخت أريج صرخة قوية بددت الصمت من حولها ثم قالت: وجدتها؟ فكرة بمليون جنيه.

فقال مستهزئًا بها وبأفكارها: هاتِي ما عندكِ يا أم الأفكار.

هي: نشتري سلسلة من الذهب بها دلاية على شكل قلب نضع بها صورة تجمعنا جميعًا ثم نكتب تحتها معًا "Forever"، فهلل عمر وأثنى على الفكرة وفي نشوة الفرح يمر طيف الأم بخيال كل منهم ونظروا إلى الصورة المعلقة على الجدار المقابل فدمعت أعينهم وتذكروا أنها فارقتهم منذ أربعين يومًا.

*****

"العدالة"

للمالِ سطوة.. والبنونَ عِزْوة.. ومن يملكهما معًا فقد زِينَتْ له الحياة الدنيا.

جلس حاتم بين أولاده ثم نظر إليهم نظرة زهوٍ وفخرٍ ثم حاكى نفسه قائلًا: "لا بد لهذه العائلة من ثروة طائلة كي تزداد عِزَّةً وإباءً. ثم عاد وقال: "نصيبي من ميراث أبي لا يكفي".

واستأثر به الطمع فسوَّلت له نفسه بالجور على نصيب أخيه الذي رحل عن الدنيا وترك من خلفه ذرية ضعافًا وزوجةً كتب عليهم جميعًا الحرمان والشقاء...

تجرد القلب من الرحمة وران عليه الظلم والسواد..

صُمَّت الآذان عن سماع أنين اليتامى وشكوى الأرملة الحزينة.. بل ادعى أن أباهم ضيَّع ماله على السهر والحفلات الماجنة وباعه نصيبه بأكمله ثم أخرج عقودًا من خزانته مستشهدًا بها... فولَّت مدبرةً والألم يعتصر قلبها ثم رفعت يديها إلى السماء تشكو حالها وتبث همَّها وحزنها إلى الله... جففت دمعها رفقًا بأولادها ثم وقفت طويلًا أمام البرواز المثبَّت على أحد جدران الصالة تتأمله دون أن تنبس ببنت شفة وكأنها تعاتبه. لِم فَعل كل هذا؟ لماذا بدد ميراثه وتركهم يسألون الناس؟

ولكن يأتيها صوتٌ من الأعماق يقول لها هذا كذب وافتراء وإن الله يمهل ولا يهمل... وانصرفت تطرق الأبواب في الأحياء المجاورة تعرض المساعدة مقابل أجر.



كل من على وجه البسيطة لا يملك ضمانًا بطول العمر أو دوام الصحة والجاه والسلطان. بل للدنيا تقلباتها... وللزمان غدره... وكما يدين المرء يُدان.

بعد أن نهل حاتم من الدنيا والعز ما نهل.. تجارة مزدهرة ورائجة.. قصر يموج بالخدم...أولاد وبنات زيجات أساسها الحَسَب والنسب.. انتابه الغرور فكان "كالذي دخل جنته وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا"

ولكن ما بين طرفة عين وانتباهها... يُغَيِّر الله من حالٍ إلى حال...

أصابه المرض. وهن جسده... أهمل تجارته. لم يعد يقوى على إدارة شئونها بمفرده. كَثُرتِ السرقات من حوله وهو يعلم، وما إن ضاقت به السُّبُل.. ودموع الأسى تفطر قلبه استغاث بكبير أولاده أن يعود من هجرته ليساعده في إدارة شئون التجارة، وبعد إلحاح شديد. عاد الابن ولكنه ليس الابن الذي يتمناه الأب.. عاد بعاطفة باردة وكأن برد أوروبا طُبِعَ عليها... عاد وحب المال يسيطر على وجدانه... لم يقبل بمساعدة أبيه... مدعيًا أن له أساليب حديثة وعلمية للنهوض بالتجارة، وسأل أباه أن يوكله بإدارة التجارة ويركن هو للراحة...

ثار الأب... ورفض طلب الابن... فلم يكن أمام الابن إلّا أن يشق عصا الطاعة وقد تجرد من الرحمة وضرب مثالًا رائعًا لعقوق الوالدين ثم هدده بالحجر عليه...

بُهِتَ الأب. وترنح قليلًا ثم أسند يده على الجدار وبأعين لامعة نظر إلى ولده وبشفاه مرتعشة نظر إلى قدميه التي ناءت عن حملة فسقط على الأرض وهو يردد "وبالوالدين إحسانًا".

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ۝١٠ ﴾ [النساء: ١٠]

صدق الله العظيم.

*****

"أول نظرة"

كانت تلك النظرةُ هي النظرة الأولى ولا أدري ماذا حدث بعدها؟ لم أشعر إلّا بقشعريرةٍ تسري في بدني وكأن تيارًا كهربائيًّا خفيفًا مسّني فارتجفت أوصالي وخُيل لي أني لم أرَ مثلها من قبل.

وجهها يحاكي وجه القمر في استدارته. عيونها وكأنها اتخذت من الليل سواده. تعتليها حواجبُ سوداءُ مخطوطة لا يوجد بها شعرة ناشزة.

تكسوها أهداب طويلة إذا أطبقت جفنيها أحسستُ بوخز في قلبي.



بالقربِ من محطة القطار لملمتُ أشلائي المبعثرة من حولي وطُفتُ في شوارع المدينة كي أستدل على بيتها وكان لي ما أردت.

أرخى الليل سدوله فاستدعيتُ النومَ مرارًا ولكنه هجرني. فبقيت مستلقيًا أُقلّبُ صفحات الذاكرةِ صفحةً تلو الأخرى حتى وقعتْ نظرتي عليها والتقت العيون. فتلك النظرة كانت السهم الذي أصاب قلبي. جاهدتُ مرارًا أن أطردها من خيالي وأعود إلى سابق عهدي ولكن ذهب جهادي سُدى. فبتُّ أمنّي نفسي أن أقَترن بها. فاستجمعت شجاعتي وتوددت إلى أمي:

❖ ألا تودين أن تفرحي بي؟

ابتسمتْ ولمعت عيناها. وبدا لي أنها تذكَّرتْ والدي -رحمةُ اللهِ عليه- وتمنت أن يكون بيننا في تلك اللحظة كي يشهد أنها أتمت واجبها على أكمل وجه، ثم قالت: هذا ما أتمناه. ولكن من تكون العروس؟ زميلةُ عملٍ؟ أم زميلة سابقة بالجامعة؟

❖ لا هذه، ولا تلك! بل هي صبية جميلة وقعت عيناي عليها بصحبة والدتها بالقرب من محطة القطار فتبعتها حتى اهتديت إلى منزلها وقلبي يحدثني أن هذا نصيبي.

❖ كيف تقترن بمن لا تعرف عنها شيئًا؟ بل وربما تكون مخطوبة أو متزوجة!

❖ لا حدسي يقول إنها خالية كما أن يديها ليس بهما خاتم ولا سوار.

❖ يوم الخميس إن شاء الله. نقوم بزيارة تعارفٍ لهم ونطلبها من أهلها. ثم ضمتني إلى صدرها وطبعت قُبلةً على جبيني.

❖ ❖ ❖

ما أطولها ساعات الانتظار وأنت تترقب حدثًا سعيدًا.

وكان اليوم الموعود فذهبت متأنقًا بصحبة أمي. وبيدٍ مرتعشةٍ طرقت الباب وإذا بوالدتها ماثلة أمامي. انتابتها الدهشة:

❖ خيرًا إن شاء الله؟ ماذا تريدان؟

❖ نحن ضيوف. ألا تسمحين لنا؟

اتخذنا مقاعدنا وسهامُ الحيرةِ والدهشةِ مُصوبة إلينا إلى أن تمالكت نفسي ونظرت إلى أمي وقلت: يشرفني أطلب ابنتك للزواج.

❖ أي ابنة؟

❖ ابنتك التي كانت بصحبتك يوم رأيتكما معًا على مقربة من محطة القطار.

عاوَدتُها الدهشة. وفغر فوها. واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ثم قالت:

❖ البنت التي رأيتها لا تصلح للزواج.

❖ كيف وهي ما شاء الله مثل القمر؟

❖ ولكن الحلو ما يكمل. فمنذ أن كانت في الرابعة عشر من عمرها تعرضت لحادثة وأصيبت بلوثةٍ في عقلها؟

*****

"وأشرقت الشمس من جديد"

الرحمة مست شغاف القلب. دموع الندم لمعت في العيون وبللت الخدود. وتخلَّصت سعاد من عقدتها وَمثلتْ أمام رباب زوجة ابنها عيسى تبدي أسفها واعتذارها على ما بدر منها تجاهها خلال السنوات الماضية.

رباب طيبة القلب. حنون... نقية... أذهلها ما سمعت ودون شعور منها ارتمت في أحضانها وقبلت يديها. دلفت إلى غرفتها لتلقي بجسدها على كرسي بجوار النافذة المطلة على الشارع.. نسمات حالمة تداعب الستائر وتتطاير خصلات الشعر متنافرة تلثم الوجه ثم ما تلبث أن تعود كما كانت..

سافرت بفكرها بعيدًا إلى اليوم الذي زُفَّتْ فيه إلى زوجها. كانت قد أتمت العشرين من عمرها. فرحت حماتها كثيرًا وأثنت عليها واستبشرت بها خيرًا. ووصايا أمها نُصْبَ عينيها. ألّا تفرط في حق زوجها.... وتكون مطيعةً لحماتها... وكما أوصت الأم ابنتها. أوصت الحماة بلين الجانب تجاه كنتها كي لا تشعر بفقدان الأهل فجأة وخاصة أنها وحيدتها وقد تركها والدها إلى رحاب ربه وهي في التاسعة من عمرها. فوعدتها خيرًا ثم ما لبثِتْ أن ودعتهما وانصرفت قريرة العين. هادئة البال.... مطمئنة النفس.



ينتهي شهر العسل وينتهي كل حلوٍ معه... فاقت الحماة من نشوة الفرح وأيقنت أن ولدها أصبح لديه ما يشغله. زوجة وبيت ومستقبل يخططان له معًا.. أيقنت أنه لم يعد كما كان من قبل يداعبها ويشاكسها في المطبخ وقد يتوسد ذراعيها وهو يرقد بجوارها يحكي لها كل ما يجول بخاطره وما يواجهه في عمله وفي الشارع أيضًا.. أيقنت أنها لم تعد اهتمامه الأول؛ فلديه الآن ما يحيد بتفكيره حتى لو قليلًا عنها. لم تدرك أن هذه سنة الحياة ورغم كل هذا فقدرُ الأم لا ينتقص في قلب الابن. حتى وإن كان له زوجة يحبها ويهتم بها... فهل حب الأم يضاهيه حب؟!

اشتعلت نار الغيرة بين أضلاعها وباتت تتفنن في تعكير صفو كنَّتها ضاربة بالوصايا عرض الحائط. كل ما يهمها أن تظهر ساحتها أمام ولدها أنها ليست جديرة به كزوجة. فهي لا تجيد أعمال النظافة والتنسيق... ولا تتقن طهي الطعام الذي يحبه...

والكَنَّة مطيعة راضية.. لا ترفع الرأس ولا الصوت.. كل ما يشغلها. إرضاء الجميع.



العام الأول يمر والبيت خاوٍ من صراخ الأطفال وبكائهم... تململت الحماة وأطرقت مسامع الزوجين بكلمات تعكر الصفو وتكدر الخاطر. فأيقنا أن ما فات كان يسيرًا إذا ما قورن بما هو آت.

طُرِقَتْ أبوابُ العيادات.. أُجريت فحوصات... أشعات... وعمليات جراحية للزوجة. دون جدوى. ربما لأن الوقت لم يحن بعد؟

الحماة عِيلَ صبرها. والكنَّةُ صابرة محتسبة وتفانت في خدمة زوجها فهو الزوج والابن والحبيب... الحماة قانونها لا يعترف إلّا بالذرية.. ولا تريد أن تصدق أن العيب أحيانًا يكون في الأبناء.. العيب في الكنَّة.. والتقصير دائمًا من الكنَّة....

واتخذت على نفسها عهدًا أن تزوج ابنها بأخرى ولود...

نسيت قول الله تعالى:

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]

فكل شيء عنده بحكمة.. وكل شيء عنده بميعاد... فهو سبحانه من أصلح لإبراهيم زوجه... وهو سبحانه من وهب يحيى لزكريا بعد أن وَهنَ منه العظم واشتعل رأسه شيبًا.

الزوجان صابران... والحماة تصب جَّم غضبها على كنَّتها وطعنتها في أمومتها. ونعتتها بأنها لا تصلح أمًّا ولو رأى الله فيه ذلك لوهبها الأبناء. فهي كالشجرة التي لا تلقي بثمرها حتى لو رميت بالحجارة.

الابن صابر. احتضن زوجته ورفض رغبة أمه في تزويجه.. كما رفض التخلي عن زوجته... ربما يكون الدافع وراء تلك التضحية هو الحب.. وربما يكون الإيمان بقضاء الله وقدره؟



عشر سنوات مضت على الزواج... الحماة تتلهف لرؤية الأحفاد قبل أن تلقى ربها.. الابن صابر.. الكنَّة منكسرة، الأيام ثقيلة المحمل على الجميع... لسان الحماة يلهب ظهر كنَّتها.. يعود الزوج من عمله.. تأوي إليه زوجته لتقوم على شئونه.

الحماة غلبها الظن أنها شاكية لا محالة... فقد فاق كلامها كل طاقات الاحتمال وتوارت خلف الباب تسترق السمع وترى ماذا هي فاعلة... وعندما هم الزوج بسؤالها عن أحوالها ويومها مع حماتها فما كان منها إلّا أن أثنت عليها والتمست لها الأعذار في كل ما تفعله فشوقها ولهفتها لرؤية الأحفاد يغفران لها ما تفعله. وهي التي فشلت في تحقيق الأمنيات لهما... فهي تعدها بمثابة أمها.. وهل يحق للابنة أن تغضب من أمها مهما فعلت بها؟ كما أنها تحب دائمًا أن تشعر بأهميتها في المنزل. وتكون الكلمة الأولى لها والشورى أيضًا لها. وأن الأمور ما زالت في نصابها وهي طيبة القلب. تظهر غير ما تبطن...

انفرجت أسارير الزوج.. ضمَّها.. قبَّل رأسها.. ثم أخرج قصاصة من جيبه بها إعلان عن مركز طبي يقوم بإجراء عمليات الحقن المجهري.. وكان فرج الله عظيمًا.. حملت الكَنَّة وأنجبت طفلًا جميلًا ملأ البيت صراخًا وبكاءً وملأ الحياة نورًا ودفئًا بعد أن أوشك الظلام والبرد على افتراسها.

****

د. مجدي سراج

"الدار"

مع شروق شمس كل يوم تتسلل إلينا أشعتها الذهبية خلال فتحات فتدغدغ أجسادنا وتبعث فيها الحيوية والنشاط. وتلفح وجوهنا نسمات حالمة مع افتراس الظلام لآخر خيط من ضوء النهار.

يتكرر الشروق والغروب. وتتعاقب الفصول. يمضي الصيف ويعقبه الخريف. كل شيء يتغير من حولي ولكن يظل سؤالٌ واحدٌ بداخلي: من أنا؟

ذلك السؤال تملكني وعربد بكياني ولم أعثر له على إجابة شافية. كل ما علمته ونحن متراصون في صفوف وسط فناء الدار والمربيات يطُفْنَ من حولنا وصوت المديرة الَجهُوري يدوِّيً في آذاننا بأن الجميع هنا أخوة.. كل من يشاركك الغرفة ويرقد على سرير بجوارك هو أخوك.. كل من يلعب معك الكرة أو يجلس بجوارك في غرفة الرسم هو أخ لك. والمربية هي الأم البديلة. فلا تشغلوا بالكم في التفكير بمن أنتم؟ وما الذي جاء بكم إلى هنا.؟

طرحت سؤالي على أمي البديلة مرات عديدة فكثيراً ما كانت تنهرني ولكنني ذات مرة حظيتُ منها بحضن.. ولكنه ليس كحضن الأم.. حضن كاذب أو مزيف تنقصه اللهفة.. لهفة الأم على ولدها عندما يغيب في الشارع مع أقرانه ويعود متأخراً أو عندما يعود من المدرسة. فلا تألو جهداً

وينفجر بركان الحنان لديها لتعوضه عن الساعات التي حرم منها... وقالت إن اسمي عمر وإنني قدمت إلى الدار عن طريق قسم الشرطة.. كنت آنذاك لم أكمل الشهرين من عمري وإنني لأبوين قد قضيا في حادث سير أليم تشوهت معالمهما ولم يستدل لهما على اسم أو عنوان أو قريب لهما يقوم باستلامك.. سهرنا على رعايتك حتى أصبحت هكذا اليوم طفلًا جميلًا أكمل العاشرة من عمره.

كلامها لم يشفِ كل ما بداخلي ولكن مسني شيء من الارتياح وأنا أستمع لكلمة يتيم وأحسست حينذاك أنني أتميز عن أقراني لأن لي أب وأم ولي جذور في هذه الأرض.. أما بعض إخواني فقد وجد على قارعة الطريق في الصباح الباكر أو أمام باب مسجد قبيل صلاة الفجر.. ربما يكون لوالدين شرعيين وربما غير ذلك...وقد تجد عين الأم ترقبه من بعيد كي تطمئن إلى أين سيؤول مصيره.

الدار بها كل شيء.. الأكل والألعاب والملابس الجديدة. فلأعدمنا أهل الخير.. ولكن ينقصنا الدفء الأسرى الذي ينقذنا من برودة الوحدة وهي تنخر في عظامنا خلف الجدران... ولكنه كان يمسنا أحيانًا في الأعياد والمواسم وأول شهر إبريل. حيث يتوافد على الدار بعض الآباء والأمهات بصحبة أطفالهم مُحملين بالهدايا والملابس الجديدة نلهو ونلعب معًا لسويعاتٍ قليلة ثم يودعوننا على أمل الزيارة مرة أخرى. قد تتكرر وقد لا تتكرر... المهم أنهم ودَّعونا ولديهم شيء من الرضا أنهم فعلوا ما عليهم تجاهنا.

وكلما اشتد بي الحنين إلى الدفء الأسري أمني نفسي بأنه لا بد وأن يأتي يوم ويسأل عمٌّ لي أو خال ويستدل على مكان الدار ويأتي لينتشلني من هنا وأعود إلى حياة الحرية واللعب واللهو وأرتمي في أحضان العائلة أنعم بالدفء وحنان جدتي وهي تحتضنني قائلة: الغالي ابن الغالي.. ألعب مع أقراني.. نركض خلف الكرة.. نتخاصم ونتصالح بعدها بقليل.. الجيران ينهروننا ويأمروننا باللعب بعيدًا عن منزلهم.. وأحتضن أحلامي.. وأتوسد أمانيّ وفي نشوة السعادة توقظني الأم منادية. هيًّا يا عمر... لقد اقترب موعد المدرسة.

ويتسلل شعاع الشمس من فتحة النافذة فأنهض متكاسلًا وأقول لها: لماذا لم تتركيني أتمتع باللعب مع أولاد عمي وأنعم بالدفء معهم.

فتضحك قائلة: يبدو أنك كنت في حلم جميل.

نهضت من فراشي.. وها هي الشمس تشرق من جديد.. وسيعقب الليل النهار وتهب النسمات الحالمة.

ويظل السؤال بداخلي:

من أنا؟

*****

"لحظة يأس"

السكون يخيم على أرجاء المكان والظُّلمة كست شوارع المدينة. الأشجار على ضفاف النيل تتراقص مع النسمات العليلة التي تلفح وجه المدينة من آنٍ لآخر وضوء القمر ينساب بين أوراقها كقطرات من فضة. السماءُ صافية إلّا من غمامةٍ ألقت برأسها على ذراع الليل كي تنعس قليلًا قبل أن توقظها شمس النهار... والعم حمدان يجهز الشباك والمركب تتأرجح على ظهر الماء.

ونادى صالح عمه: سمعت يا عمي؟

العم: خير يا ابني.

صالح: "الظاهر فيه حد رمى نفسه من فوق الكوبري".

العم: يا ساتر يا رب.

ونهض العم حمدان وألقى ما بيده من شباك ولم ينتظر حتى يرخي الشراع واستعان بالمجاديف ليندفع المركب يشق صدر الماء بحده المسنون والغريق يعلو ويهبط يبحث عن قشةٍ يتعلق بها، سحبوه إلى أعلى المركب وألقوه على جانبه ليخرج الماء الذي اندفع إلى جوفه ثم حملوه وعادوا سرًّا إلى البيت.



صالح شاب قوي البنية لديه من الحماس ما يكفي لسهر الليل كله على ظهر المركب يبحث عن الرزق بصحبة عمه الذي كفله بعد رحيل والده ارتسم الغضب على وجهه؛ مَن الذي قذف به القدر في طريقهما وحرمهما صيد تلك الليلة ولكن جزاء ما فعلوه عند ربهم خير وأبقى.

وبدلًا من سهر صالح وهو يطارد الأسماك بشباكه سهر يُمرِّض الغريق المحموم بفوطٍ مبللة بالماء البارد ولما اطمأن قلبه عليه نام بجانبه ومع انبلاج الصبح عاد الغريق إلى وعيه فوجد نفسه ممددًا على فراش فصاح قائلًا. أين أنا؟ ومَن أتى بي إلى هنا؟

فردَّ عليه صالح غاضبًا: أنت الآن في جنة الخلد ولم يكن بينك وبين جهنم إلّا بضع ضربات من المجداف على وجه الماء.

وفي أثناء ذلك الحوار دخل العم حمدان فحمد الله على سلامته وألقى إليه عتابًا أبويًّا حنونًا قائلًا: "ليه يا ابني تعمل في نفسك كده؟ أنت شاب والمستقبل أمامك. ليه تغضب ربنا؟ عايز تموت كافر؟".

فبكى ذلك الشاب بكاءً مريرًا ثم قال: زوجة أبى هي السبب.

العم حمدان: وما علاقة زوجة أبيك بما فعلته؟

هو. أنا اسمي عمر وأبي من رجال الأعمال، ميسور ولكنه مزواج يعشق النساء تزوج سرًّا بأخرى ولما تسرب الخبر إلى أمي مرضت ولم تلبث طويلًا حتى لاقت ربها. كنت حينذاك أبلغ من العمر اثني عشر عامًا وتجرعت مرارة الحرمان من أمي ممزوجة بقسوة زوجة الأب.

وتعددت زيجات أبي وجاءت الزوجة الأخيرة، كانت شابة تصغر أبي بأكثر من ثلاثين عامًا وأنا طالب جامعي بكلية التجارة. في السنة الثالثة ولكن آه من كيد النساء؛ فهي لم تتزوج من أبي حبًّا وهيامًا به ولكن طمعًا في ثروته وأرادت أن تستحوذ على الثروة بأكملها وقررت إبعادي عن طريقها حيث إنني الابن الوحيد، وأمي قد ماتت، فتآمرت مع الخادمة واتهمتني بسرقة بعض مجوهراتها ونهرني أبي بعد أن جاءت الخادمة مهرولة وتلهث قائلة: "يا ست هانم. المجوهرات كانت في غرفة سيدي عمر"، ولما أراد الله فضح تلك المؤامرة ساقني الله إلى طريقهما لأسمع تحاورهما فأسرعت إلى أبي لأخبره بما سمعته ولكن سحر النساء قد صمَّ الآذان.



ولمَّا سَمِعتْ بما فعلتهُ أرسلتْ إليَّ وأبدت كيدًا من نوع آخر؛ تظاهرت بالطيبة والحنان والتسامح، نزعت قميصها فلاحت مفاتنها ثم ألقت بنفسها على سريرها وهي تصرخ وتنادي أبي الذي هرع إليها وإذا بها تقول: "الحقني يا عامر؛ ابنك عمر تحرش بي وحاول اغتصابي"، ولم يكن أبي قد غفر لي خطيئتي الأولى. فتبرأ من بنوتي وأتممها بطردي من جنته وكان إحساسي بمرارة حرماني من أمي أشد من ذي قبل، خرجت هائمًا على وجهي لا ألوى على شيء، تنقلت من بيت صديق لبيت صديق آخر حتى أفلت آخر قرش من بين أصابعي. ضاقت بي السُّبُل، لم أعد أحتمل نظرات الشفقة من أصدقائي وذويهم وهم يمصمصون الشفاه ويذرفون الدموع أحيانًا، تركتُ كل هذا وبداخلي رغبة لإنهاء هذا العذاب

وفي اللحظة التي ضعفت فيها إيماني بالمولى ﷻ وتملكني اليأس ولم أرَ من الدنيا إلّا السواد الذي لا يتخلله أي قبس من نور كان جسدي يتهاوى من أعلى الكوبري ليزيل ما علق به من غبار الهم والحزن في مياه النيل.

*****

"المولد"

ما كانت إلّا قصصًا نسجوها من وحي خيالهم وصدَّقوها. فَيحكى أن الشيخ صدِّيق عندنا مات طار بالنعش وحطَّ في مكانٍ بعيدٍ وضُرِبَ له مقام من حولهِ. ويُحكى أيضًا أنه عندما مات ذهبوا به إلى المقابر وعندما فتحوا النعش وجوده خاليًا. كما أن له لعنةً تصيب من يتعرض له بسوءٍ ويلحقُ به الأذى من حيث لا يدري. فذاك الفلاح الذي نال من سيرته ما إن تنفس الصبحُ حتى وجَدَ ماشيتهُ نافقةً في الزريبة. وفُلان الذي فقد النطق عندما تطاول عليه..

وذهبت تلك الأساطير وما بقي إلّا بدعة ابتدعوها وراقت لها نفوسهم ودأبوا على تكرارها حتى رسخ في أذهان الناس أن الصدِّيق رجل مبروك.

وعلى الثلاثة الذين اعتبروا أنفسهم امتدادًا لنسبهِ أن يقوموا بإحياء ذكراه كل عامٍ في محفلٍ بهيج. فكانوا يلتقون فُرَادى بالمقهى الكائن على شاطئ النيل الموازي للقرية من الناحية الشرقية ولكن إذا رأيتهم يجوبون الشوارع ويطرقون الأبواب يجمعون ما تجود به الأنفس من تبرعات تُعم البهجة باقتراب الموعد.



الليلة الكبيرة يستعد لها أهل القرية استعدادًا غير مسبوقٍ حيث يقوم الفلاحون بجلب ما يكفي مواشيهم من الحقول.

وينام الصبيةُ إلى قبيل صلاة العصر استعدادًا للسهر ومتابعة المدَّاح ويخمنون، هل سيقص عليهم قصة حمزة وسماح التي تدغدغ المشاعر وتسيل الدمع من العيون أم سيأتي بغيرها؟ وتجهزُ النسوةُ على الطيور من بط وأوز كن قد أعددنها لتلك المناسبة منذ شهر أو شهرين.

ومع أذان العصر ينطلق موكب الزفة من أمام مقر الإذاعة بالقرية ولم أكن أرى ذلك المنشد الذي يفدُ إلى قريتنا كل عامٍ من قرية مجاورة إلّا هذه المرة... يعتلي عربةً كارو تجرها مُهرة زيّنتها زوجة صاحبها بحرامٍ لها أصفر لامع كانت قد نذرته لذلك وبجواره عازف الناي. ويتغنى بأبياتٍ للإمام الشافعي.. ويقول...

دَعِ الأَيّامَ تَفعَلُ ما تَشاءُ وَطِب نَفسًا إِذا حَكَمَ القَضاءُ

وَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيالي فَما لِحَوادِثِ الدُنيا بَقاءُ

وَكُن رَجُلاً عَلى الأَهوالِ جَلد وَشيمَتُكَ السَماحَةُ وَالوَفاءُ

فيدغدغ مشاعر الناس ويبث فيهم طاقة جديدة وتتعالى أصواتهم بذكر الله ويسمع دبيب أرجلهم فينظر إليهم ويعيدها عليهم ليلهبهم من جديد ومن ورائهم بعض النسوة اللائي نذرن أن يقمن بالسقاية ويحملن القُللَ الفخارية الممتلئة بالماء البارد مضافًا إليه بعض قطراتٍ من ماء الورد.

الناس جميعًا في ذلك اليوم يميلون إلى التصوف بل ويحبون المتصوفين.

تجوب الزفة الشوارع الطولية والعرضية فتجد أهل البيوت في انتظارها ويسارعون بتلبية طلبات الصغار الذين يتبعونها ومن خلفها تجد ثُلَّة من مشايخ الطُّرق الصوفية يتوسطون شيعتهم وتظللهم رايات خضراء نُقِشَ عليها بخيوطٍ صفراء لامعة نبذات تُمَجِّدُ تلك الطريقة وشيوخها. وعلى الجانبين تُضربُ الدفوف ويموجُ الناس ويلوون أعناقهم يُمنةً ويُسرة وتتناوب أذرعتهم بلمس صدورهم وظهورهم وهم يرددون وقد تملكتهم النشوة "الله — الله"

ويعلو صوت المنشد... "مدد يا شيخ صديق مدد".

وإذا نال منك التعب وأردت أن تُروح عن نفسك فإذا التفت يمينًا أو يسارًا فتجد ما يجلب السرور إليها... تجمعات متفرقة هنا وهناك.. فهذا الحاوي يتوسط جموع غفيرة من الصبية والشباب يناشدهم بأن يدفعوا إليه بأقوى رَجُلَيْن ليشدَّوا وثاقه بحبلٍ متين لِيُريَهم كيف سيتخلص منه. فتراه يتلوى يمينا ويسارًا ويشفط بطنه ثم ينفخها.. ينبطح أرضًا ثم ينهض حتى يرتخي الحبل ويتخلص منه. فيهلل الجميع مصفقًا ويعلو الصفير ابتهاجًا ويطوف عليهم بآنيةٍ يجمع النقود...

وذاك الرفاعي يعزف بالناي ويداعب الأفاعي ويناديها بألوانها وأسمائها فتخرج متراقصةً من كيس القماش الذي يحمله....

وُثلَّةُ من الشباب الذين خَرمَوا خدودهم بأسياخٍ من حديد ويمشون صامتين بمحاذاة شيخ الطريقة الذي ينزع الأسياخ بعد ذلك ويبلل خدودهم من ريقه فتعود لسالف ذكرها...

ممارسات غريبة من أناسٍ غريبة لا نراها إلّا في ذلك اليوم وكأنه يوم الوفاء بالنذور.

وعندما تميل الشمس نحو الأفق وتتوارى خلف الأشجار العالية التي تحيط بالقرية يلتف الغرباء حول السارية ليحلوا ضيوفًا على أهل القرية ثم يعودون إلى الميدان يمتدحون الولائم ويبدؤون فصلًا جديدًا من اللهو والعبث والفسق خلف ستار الظلام.

*****

"الزيارة"

كانت الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر، الحر قائظ والشمس قد أمسكت بسياطها لتلهب جلود البشر. الفلاحون في قيلولتهم والطيور آوت إلى أعشاشها فوق أغصان الشجر. وما دار بخلدي أن أقوم بزيارة رفيق الصبا والذي يدعى "طاهر"، فقد أقعده المرض وحبسه عن مزاولة عمله حيث يعمل موظفًا بمكتب السجل المدني ولا أدري ما الذي دفعني إلى ذلك؟ ربما يكون الحنين لأيام الشقاوة لنتذكر معًا ما كنا نفعله في أثناء عودتنا من المدرسة الإعدادية والتي كان يتحتم علينا أن نمشي ما يقرب من الأربعة كيلو مترات ذهابًا ومثلهن إيابًا. ففي رحلة الذهاب ننفض عنا الكسل وبقايا النوم ونسرع الخطى وقد نركض أحيانًا كي نفلت من عقاب الناظر، وفي أثناء العودة نلهو ونلعب ونأكل الخس والجزر من الأحواض المتناثرة على جانبي الطريق.

استسلمت لرغبتي وسرت بجوار جدران المنازل أستظل بها من حرارة الشمس ولم تمض بضع دقائق إلّا وأنا ماثل أمام البيت.



صرير الباب يعيدني من رحلتي إلى الزمن الخالي حيث كنت أدخل ذلك البيت دون استئذان ليقيني أن طاهرًا بمفرده حيث كان أبواه في شغلٍ دائمٍ كعادة أهل القرية ولم يكن معه سوى شقيقه منصور والذي كان عمره

آنذاك يزحف نحو الرابعة وعندما تفرغ أمه من شئونها تأتي وتمطرنا بما لديها من خيرات. صوتها مهلل ومرحب كعادته لم يتغير بشاشة وتلقائية وطيبة تغمر القلب وقالت:

- "ساعة مباركة لما شوفناك يا دكتور".

وبمرارة يتبعها أسى تقول:

- "فاكر يا ضناي لما كنتم تقعدون مع بعضكم في هذه الغرفة وأنا أحضر لكم الطعام والشاي".

أنا: والله ما نسيت يا خالة.

ثم سحبتني من يدي وأدخلتني غرفة طاهر والذي كاد من فرحته أن يقفز من سريره رغم ثقل المرض ولكنني أشرت إليه بالبقاء كما هو وألقيت بنفسي على كرسي أمامه ولكنه أصرَّ على أن أعتلي سريره وأتربَّع بجواره ولما كان حديث عهد بالزواج بصوتٍ ضعيفٍ نادى زوجته فجاءت ورحبت ثم انصرفت على استحياء.



الأنين وشحوب الوجه يمزق نياط القلب وامتدت خيوط الكلام نتجاذبها فيما بيننا وكانت قوة جذبه أكثر بينما كانت آذاني مصغية وبدأ في سرد قصة مرضه وما يعاينه في أثناء سحب الماء من تجويف صدره وصعوبة التنفس إذا تأخرت عملية البذل ثم يتوقف ليرتشف قليلًا من الماء ويلوي لجام الكلام ويجول بجواره في بستان الفرح ليقتطف زهورًا ويهديها لزوجته.

وفجأة تلمع الدموع في مقلتيه وترتعش شفتاه وكأنه استكثر على نفسه أن يسعد قليلًا ويقول: أنا قلت لها لا تتعجلي في مغادرة المنزل بعد وفاتي حتى تندمل جراح الوالدين.

فأردفتُ قائلًا: يا رجل صلِّ على النبي. ما فيك غير العافية. وإن شاء الله تقوم بالسلامة وتهنأ بحياتك.

هو: لا يا دكتور. يبدو أن هذه المرة جد. وأنا سلَّمتُ أمري إلى الله.

أنا: ونعم بالله! والأعمار بيد الله!

أحسست بشيء يجثم على صدري ووجدتني أغمر يديه ورأسه بقبلات يلفها الدعاء بالشفاء من سويداء القلب ثم لملمت أشلائي الممزقة من فوق السرير وهممت بالانصراف، وبصوت خافت وعيون دامعة تمنّى زيارة ثانية فوعدته.

ولم يمضِ من الأيام إلّا القليل وإذا بي أسير من خلفه تجاه المقبرة.

*****

"البقرة"

انتفخت أوداج التاجر. ارتعش شاربه وانتفض كِرْشُهُ وهو يحلفُ بالطلاق أنها لا تزيد عن خمسة عشر ثم ينظر لأبي ويقول له:

- "قل الله يبارك لك".

فيردَّ أبي والهدوء يتملكه وكأن الأمر لا يعنيه بجملة واحدة:

- "يفتح الله".

ولم نكن نعلم أنا وإخوتي معنى هذه الجملة. ولكننا أدركنا قيمتها فيما بعد لأنها كانت تستشيط التاجر غيظًا. ورغم ثرثرة التاجر وكثرة جداله وحديثه المستمر عن أحوال السوق وكثرة العَرْض وقلة الطلب. كنا نبتهل إلى الله أن تتم البيعة كي نهنأ بملابس العيد الجديدة. وكان أبي يطمح أن يبيعها بعشرين عندما سمعناه يتسامر مع أمي فوق سطح المنزل في ليلة مقمرة نسيمها عليل يدغدغ الأجساد وينعش الصدور. ويقول لها نبيعها بعشرين؛ عشرة للعيد وحوائجه. ونشتري بالعشرة الأخرى عجلًا صغيرًا عِوضًا عن البقرة كي لا يظل مكانها خاويًا. وكان في مُعْجَم التجار أن الواحد بعشرة. فالخمسة عشر تعني مائة وخمسين، والعشرون مائتين. فالجنيه بعشرة أمثاله مثلما الحسنة بعشرة أمثالها.

ويعود التاجر لثرثرته وجداله ويقول: الله وكيلي، لا تزيد عن خمسة عشر.

ويرد أبي بهدوئه المعتاد: "يفتح الله".

وانتظرنا أن تنفتح أوداج التاجر مرة ثانية ويرتعش شاربه وينتفض كِرْشُه وهو يحلف بالطلاق مرة ثانية. حاله حال جميع التجار الذين اعتادوا الحَلْف بالطلاقِ. حتى بات أهل القرية على يقين أن نساء التجار كلهن مطلقات.



وتقع هدنة بين التاجر وأبي، ران الصمت فيها على أرجاء المكان. التاجر يعبث بشاربه في صمتٍ. وانصرفت أمي لتحشو مزود البقرة بالتبن. وشرد أبي بعيدًا وكأنه يعيد حساباته ويلجم جماح طموحه تحسبًا لإصرار التاجر على الخمسة عشر.

والتفتنا حوله فقرأ في أعيننا رغبة البيع كي نتمتع بعيدٍ سعيدٍ مع أقراننا من صبية الحارة وتستطيع أمي معايدة شقيقاتي المتزوجات وأولادهن. طغى عنفوان الأبوة فمسح على رؤوسنا ثم صاح فشرخ جدار الصمت المخيم على المكان وخاطب التاجر:

- "أنت قلت خمسة عشر وأنا أصررت على عشرين.
- ما رأيك نقسم البلد نصفين؟
- ماذا تعني؟
- أعني "الله يبارك لك بسبعة عشر وتعطي للعيال غداءهم.
- عليَّ الطلاق. البيعة خسرانة".

*****

"كأس الموت"

كان محمود ينظر بشوقٍ إلى المركب الكبير والذي يبدو كنقطةٍ بعيدة في لُجَّةِ البحر ويسبح بخياله ويقول: ياه يا محمود طموحك تخطى الخط المسموح به. فهل يأتي اليوم الذي أصبح فيه مالكًا لمركب كهذا؟

ثم يرتطم بصخر الواقع ويضحك ساخرًا من نفسه ومن أحلامه وطموحاته ويقول: احلم يا محمود. الدنيا واسعة والكون فسيح والبحر هادئ وصفحات مياهه مياهها بطيئة ولونها كلون السماء، ويمسك بمجدافه ويضرب بقوة وجه الماء الناعم ويندفع القارب متأرجحًا نحو مكان آخر يرمى فيه الشِّباك.



وظل الحلم يراوده في يقظته ومنامه بين حين وآخر وأصبح يعدُّ العدَّة لذلك ويكنز الأموال التي يجنيها من صيد الأسماك متظاهرًا بالفقر والعوز وقلة الحيلة وأن الصيد بقاربٍ صغير كهذا بالقرب من الشاطئ لا يعود عليه إلّا بما يغطي نفقات السهر على مقهى الصيادين وما يتخلله من شاي وقهوة وشيشة بها أنواع مختلفة من المِعَسِّل وفي ليالي المرح يُضاف إليه أشياء أخرى، وكان ولده الأكبر والأوحد على ثلاث فتياتٍ قد شبَّ عن الطوق ويُدعى "محمد" على اسم جَدَّه ولاح في الأفق خط أسودٌ خفيف على شفته العُليا وشعرات قليلة متناثرة بعشوائية على صفحة وجهه ودائم العبث بها والزهو أمام المرآة.

وكما كان محمود مدعيًا للفقر كان طماعًا جشعًا يغتصب الحقوق وخاصة من الضعفاء الذين لا يقوون على التصدي له.

وقد دفعه الطمع إلى الزَّج بولده في زحام المدينة وعليه أن يُوفِّق بين العمل والدراسة كي يتكفَّل بنفسه ويعينه على أخواته وإن لم يفعل ذلك اصطحبه إلى البحر ليعاونه في التجديف ورتق الشباك الممزَّقة. ولأن العِرْقَ دسَّاس فكان له ابنة على شاكلته يغلب عليها الطمع والأنانية وحب التَّملُّك وقد يدفعها ذلك إلى مد يدها إلى ما ليس لها فيه حق.



ومرت سنوات وسنوات ووطئت أقدام الأحلام أرض الواقع وأصبح محمود مالكًا للمركب الذي طالما حلم به وذلك بعد أن باع بيته القديم وانتقل للمعيشة مع زوجته التي تزوج بها بعد أن ماتت أم أولاده.

وأبحرت المركب كثيرًا في عباب البحر وعادت إليه بالرزق الوفير وفُتِحَتْ بيوت البحارين والصيادين ودبَّت الحياة فيها من جديد ووسوس له الشيطان أن يستثمر ذلك المركب خير استثمار وطافت بخياله فكرة تهريب الشباب إلى الشاطئ الآخر حيث تتحقق الأحلام والثراء السريع، وسرعان ما أصبحت الفكرة خبرًا وانتشر انتشار النار في الهشيم وتوافد عليه الشباب البائس الحالم بالثراء وكُلّ قد باع أو رهن ما لدى أهله من حُليّ وبضعة قراريط من الأرض الزراعية هي ميراث أمهاتهم غير مبالين بشيءٍ؛ لا يهمهم سوى الهروب من البؤس والفقر والتسكع ليطرقوا أبواب الثراء حتى لو تهددوا الموت غرقًا في سبيل تلك الغاية.

وينطلق المركب وعلى متنه بحارون كُثُر وشباب حالمون، تعبث بها الرياح والأمواج حتى تُلقَي بما في جوفها من زهور قُبَيل الشاطئ الآخر بعدة أميال ويتخذ البحر منهم من يريده عريسًا لحورياته أو يلفظه على الشاطئ محاطًا بعناية السماء كي يقع في قبضة الشرطة ليعود أدراجه وقد خَسِرَ كل شيء وقد زُجَّ به في السجن شهرًا أو شهرين. ويصاب الأهل بخيبة الأمل لضياع المال والبعض الآخر بصدمةٍ تزلزل كيانهم لضياع المال والولد، ومحمود سعيدٌ بما يجمعه من تجارة الوهم.



وذات يوم عاد محمد وقال لأبيه:

- يا أبتي، كل السُّبُل ضاقت بوجهي ولا فائدة من تلك الشهادة المُعلَّقة على جدار الغرفة والعُمر يمضي.

ضحك ساخرًا من ولده وهز كتفيه وقال له:

- الفرصة أمامك.

- أين الفرصة التي تتكلم عنها يا أبي؟

- "السفر يا وارث الغباء عن أمك. تفعل كما يفعل هؤلاء الشباب وتعود بعد عامين أو ثلاثة ولديك ما يمكِّنُكَ من شراء قطعة أرضٍ وتشيِّد عليها بيتًا جميلًا وتتقدم لخطبة عروسٍ ذات حسبٍ ونسب.

- لا يا أبي لن أسافر بطريقتك هذه؟ يا أبتي خاف الله. شباب مثل الورد يروح هدرًا وأنت مذنب أمام القانون.

- وأنا مالي؟ المركب له ريّس وعليه بحاره كُثُر ولا علم لي بما يحدث عليها، أنا فقط مالك للمركب؟

أحس أنه لا فائدة من كثرة الجدال معه فتركه دون أن ينبس بشيء.

- أنت حر وعقلك في راسك تعرف............



ولما استيأس محمد من السفر بالطرق النظامية والحصول على تأشيرة في سفارات إحدى الدول التي يود الهجرة إليها عاد إلى أبيه شاكيًا سوء الحال.

- المركب سيبحر فجر الليلة وما عليك إلّا أن تقفز على متنه.

- الليلة!

ودبَّ الخوف في سائر جسده. ارتعدت فرائصه وبصوت مرتعش استجدى أباه أن يُمهِل السفر أسبوعًا كي يودع أصدقاءه ويتهيأ نفسيًّا لما هو آتٍ.

أصرَّ على قراره وكأنه ضرَبَ مع القدر موعدًا ليرسل ولده ولا يود أن يُخلِفه.

أمسكت الأخت الطامعة الحالمة بدفّة الكلام تحث أخاها على السفر قائلةً: أخائفٌ أنت؟ ألا تقدر على السباحة أميالًا قليلة وأنت وُلِدت بالبحر؟!

أذعن للأمر صاغرًا وردد في سريرته: "ربي لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه".



وكان ذلك اليوم لا يشبه ما سبقه من أيام، والبحر لم يكن كسابق عهده هادئًا؛ فالموج هادر يلطم الصخر بقوة وكأنه يثأر منه، وطيور سوداء تنعق وكأنها نذير شؤم، ومحمود ضيق الصدر مهموم.. العيون غائرة وعظام الوجه ناتئة كمن ألمّ به مرض عضال وأرخى الليل سدوله وران الصمت. ونادى منادٍ يشق صدره:

- اشرب يا محمود من الكأس التي أسقيتنا منها في الأيام الخالية.

فنهض من مكانه فزعًا وأرخى أذنيه لاستقصاء الخبر وإذا بمن يخبره أن البحر ابتلع المركب ومن على متنه ومن بينهم ولده.

*****

"أولاد الضياع"

انبلج الصبح. وُلِدت الشمسُ من رحم الأفق وصرختْ في وجه الكون فانتفض وهبَّ من مرقده وسعى الناس في الأرض، تأبَّطت زينب حقيبتها وودعت أطفالها بقبلةٍ على جبين كل منهم وهم يُلوِّحون بأكفهم الصغيرة ليرسموا البسمة على وجه الحياة، شيء ما يدور بخاطرها. إنه الشك قد بدأ يساورها تجاه زوجها محمود وتسأل نفسها وهي تذرع الطريق بين البيت والعمل: تُرى ما الذي يجرى؟ لماذا تغيَّر؟ وما سر البرود الذي أصابه؟ ربما يكون حبًّا آخر"

تعود وتجيب على نفسها: "لا، إنه يحبني ويحب أطفاله.

وتعود وتسأل من جديد: "ولكن لماذا ينأى بوجهه بعيدًا عندما أتحدث إليه ولماذا زهدني في............. لا بد وأنه ارتكب خطأ ما ولديه شعور بالذنب تجاهي.... هكذا هم الرجال.



بدأت زينب يومًا من العمل وهي في حالة لا تمكنها من القيام بأي عمل. استأذنت وعادت أدراجها. شيء ما يجثم على صدرها وهي تتمنى أن يكون كل ما بداخلها أوهامًا لتطردها بعيدًا وتستأنف حياتها من جديد. دقات قلبها تعلو وتعلو وكأنها تدق في أذنيها، دلفت إلى البيت بخفةٍ كي لا يشعر بها أحد وهي متوجسة خيفة. الأطفال يشاهدون التلفاز مشدوهين بالشخصيات الكرتونية.

تسللت على أطراف أصابعها بعد أن تخلصت من حذائها كي لا يشعرون بقدومها. فتشت جميع الغرف ولم يتبقَّ إلّا غرفة واحدة. بيد مرتعشة أدارت المقبض وهالها ما رأت.

زوجها في أحضان امرأة أخرى على فراشها وفي غرفة نومها. اندفعت إلى خزانة ملابسها في غرفة أخرى وأخرجت مسدسًا من بين طياتها وبحركات هستيرية أطلقت أعيرة نارية تجاههما فأردت الزوج قتيلًا وأصيبت العشيقة إصابات بليغة. فرقدت على السرير الأبيض ورقد محمد في ثلاجة الموتى.



رجال الشرطة يضربون سورًا حول مسرح الجريمة. وقف الأطفال ينظرون جميعًا إلى الأم وهي تهبط درجات السلم بخطى متثاقلة والأغلال في يديها وهي ترمقهم بنظراتٍ ملفوفة بالحزن والأسى على المصير الرابض خلف الباب بانتظارهم والدموع متحجرة في مقلتيها.



صرير باب الزنزانة يُدَوِّي في أذنيها وهي لا تسمع إلّا صراخ وأنين أطفالها. آوت إلى ركنٍ مظلمٍ. ثم ألقت بنفسها وأسندت رأسها إلى الحائط وأخذها الشرود بعيدًا إلى يوم عُرْسِها. يوم أن زُفَّت إلى محمدٍ والفرحة تُعربدُ بكيانها وكيف مرت الحياة بعد ذلك بين حب ومودة ورحمة وكلما أحسَّت بينبوع الحب ينضب استسقت محمدًا فيمطرها حبًّا وحنانًا ويدور بينهما حوار.

هي: أما زلت تحبني؟

هو: ولا أرى سواكِ.

هي: هل ستظل كذلك؟

هو: إلى الممات.

فيدغدغ ذلك مشاعرها وتشعر حينذاك أنها تمتلك الدنيا بما فيها ثم تحتضن السعادة وتخلد إلى النوم.

واستمرت حياتها هكذا حتى ظهرت تلك الصديقة التي تُدعى هناء في حياتها من جديد بعد انقطاعٍ دام ست سنوات منذ أن أنهت الدراسة الجامعية وبعد أن طُلِّقت من زوجها وخرجت من زيجتها خاسرةً حيث لا مال ولا ولد فهي لم تُنجِب وخسر الزوج كل ما لديه في مضاربات البورصة.

وباتت تتردد كثيرًا عليها حتى ألقت بشباكها حول محمد، وزينب فرحة بصداقتها وهي لا تدري أنها تدس لها السم في العسل.

أفاقتْ من شرودها، صرخت صرخة قوية بددت الصمت المخيم على أرجاء محبسها ثم قالت: آه. يا محمد. أنسيت وعدك لي؟

هكذا تنتهي حياتنا. وقصة حبنا. ها أنت قد مُتَّ. وأنا عرفت مصيري. السجن أم القصاص؟ تُرى ما مصير أطفالنا وثمرة حبنا؟ ولكنّ محمدًا لا يجيب.

*****

"وتستمر الحياة"

قُضيتْ صَلاة العصر... أُقيمتْ شعائر صلاةِ الجنازة.. الشمسُ لملمت ضفائرها وجهَّزت نفسها للرحيل... ظلال الأشجار الباسقة على شاطئ الترعة امتدت لتكسو الطريق بين القرية والمقابر... أفواج من المشُيعين عادوا أدراجهم بعد أن أودعوا المرحوم. البعض لديه ما يشغله فانصرف إليه. والبعض الآخر توجه صوب السرادق المقام على فضاء فسيح غير بعيد من مدخل القرية.

وكنا صبية نركض حفاةً خلف الكرة. تتعالى الأصوات. يشتد الصراخ وينشب الجدال دون مراعاةٍ لجلال الموقف وهيبته.

ربما لأننا لم نكن ندرك المعنى الحقيقي للموت والفراق... وعندما همّ الشيخ بالقراءة "ما يعرف بربع العصر" ويشْرَعُ به بعد العودة من الجنازة مباشرةً وكأنه مواساة للفقيد في قبره... الكلُّ واجمٌ حزينٌ وكأن روحه ما زالت تحومُ من حولهم.

تسللنا بثيابنا المتسخة وأقدامنا الحافية نتلصص لرؤية الشيخ القارئ الذي أوتي به من المدينة ربما تفاخرًا وزهوًا أو لاعتقادٍ من أبنائه أن ذلك يخفف عنه في قبره. ولكن ما ينفع في ذلك الموقف. الصدقة الجارية والعلم النافع للناس ودعاء الوَلَد الصالح... وكان المرحوم ذا شأنٍ في قريتنا... كانت له تجارة تدر عليه أموالًا. وتربطه صلة قربى بأبي.

من بين فرجات السرادق وقعت أعيننا على القارئ وإذا به متربعًا على أريكة مخملية تعلو ما حولها. يرتدي قفطانًا أزرق اللون... يعتمر عمامة بيضاءً يتوسطها طربوش أحمر. تبدو عليه البدانة ووجههُ مشرئب بالحُمرة... أمامه طاولة صغيرة عليها كأسان بأحدهما ينسون والأخرى بها ماء ساخن مُحلَّى بالسكر لتنقية الصوت. وأمتعنا وهو يتلو.

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾

[التوبة: ٤٠].

وتنتفح أوداجه ويتفصد العرق من جبينه. وعند الوقفات يعلو صوت المهللين من حوله من شيوخ القرية المُبْصِرُ منهم والضرير للشد من أزره، وفي الختام يثني عليهم ويثيبهم جزاء ما فعلوا.....



صهيل الجياد يعلو وهي تعدو بذاكرتي إلى فصول الدراسة وحصة التربية الدينية حيث كنا نستمتع بقصة الهجرة من مكة إلى المدينة لرسولنا الحبيب عليه الصلاة والسلام وقصة الغار الذي لجأ إليه هو وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه".

وقبيل المغرب أُختتم الربْع وانفضَّ الجمعُ... ونامت راحة يدي في كف أبي وإذا به يحنو حنوًّا زائدًا وأنا أنظر إليه مشدوهًا فاغر الفم، وأسأل نفسي: ماذا جرى؟ ما سر هذا التحول؟ فهذه ليست عادته. لقد اعتدنا على النهر والزجر كلما وجدنا نلهو ونلعب دون استذكار دروسنا.. ولكن الحقيقة هي أنها... عندما تعود مريضًا طريح الفراش أو تشيِّع فقيدًا عزيزًا لديك تعيش لحظات من الشفافية والزهد في الدنيا ولكنها لا تلبث طويلًا. فإذا دخلت جنتكَ واستمتعت بالنظر إليها تعود مرة ثانية. فالحياة مستمرة رغم لوعة فراق الأحبة.



"الطابور"

انتهت الدِّيكةُ من صِياحها ثم عادت إلى قِن الدجاج فوق أسطح المنازل المجاورة بعد أن أيقنت أنَّ النيام قد استيقظوا لأداء صلاتهم... تنفَّس الصُّبح. نهضتُ على عجلةٍ من أمري. لم أرقب الشمس والتي ما زالت متوارية خلف المباني العالية. بيدي بطاقة الخبز وبضعُ جنيهاتٍ. التفتُّ يمينًا ويسارًا كي يطمئن قلبي من عودة الجارة.

تلك الجارةُ التي عَهدتها دائمًا متدثرةً بشالٍ أسود اللون وبيدها مسبحة كهرمانية. تهمهمُ بالأذكار ولكن إن وقعتَ في مدارِ فلكها فلن تسلم من الأذى.

انغمستُ في الشارع الذي ما زال خاويًا إلّا من بعض القططِ التي تبحثُ عن خشاشٍ تسد به رمقها. وابن عرس أحمَر اللونِ يصولُ ويجولُ صارخًا يرقب عصفورًا قد حطَّ على بعضِ الحب. ويدوي صراخُه في أذنِ الكتاكيت فتفزع ثم تنكمشُ على بعضها......

وأمام فرن الخبز طابوران. طابور الرجال طويلٌ به أُناسٌ عائدون من صلاة الفجر وشباب تجهزوا للذهاب إلى أعمالهم أو تجارتهم. وصبية كانوا قد انتهوا من الركض خلف الكرةِ في أرضٍ فضاءٍ موازية لشريط القطار.

وطابور النساء به امرأة معيلة ربما تركت أطفالها يغطُّون في نومٍ عميقٍ وتسللتْ خشيةَ أن توقظهم بعد أن فقدت سندها، قامات طويلة وقصيرة ولكن للوجوهُ سمت واحد. سَمْت يتخذ لونهُ من ترابِ الأرض.. ووجوهٌ غلبتْ عليهم شقوتهم يمتعضون.. يتثاءبون. ساخطونَ على كل شيء. حتى يوم الجمعة لا يهنؤون بالراحة ولا بد من الاستيقاظ مبكرًا للِّحاق بطابور الخبز.

اتخذتُ مكاني بينهم وأنا أرقب من حولي.... يسود الصمتُ تارةً. وتبدده تارةً أخرى فكاهة رجلٍ عجوزٍ يتندَّر عن السياسة والانتخابات والمرشحين. ويسأله آخر ما الذي يدعو إلى إقامة انتخاباتٍ طالما المرشحون قد انسحبوا؟ وأن الساحة باتت خاليةً أمام الرئيس وحتما سيفوز بالتزكية.

ويتهكم ثالثٌ: الرئيسُ سوف يفوز لا جدال. ولكن لا بد من إقامة الحُجَّة على كل طاعنٍ ومشككٍ لا يؤمن بنزاهة الانتخابات..

ثم يعرجون بعد ذلك إلى الغلاء الذي قصم ظهور البشر وأنَّه إن استمر على هذا المنوال فإنهم سوف يُغمِّسُون الخُبَز بالماء.

ويكف العجوز عن فكاهته ثم ينأى جانبًا ليبرُمَ رغيفًا من الخبز ويغمسه في كوبٍ من الشاي الساخن كان قد حصل عليه من بواب العمارة المجاورة. ثم يلوك الخبز في فمه فأشفق عليه من شدة ما يعانيه من مضغ الطعام بين فكيه بعد خلوهما من الأسنان...

يتوالى صرف الخبز ويقصرُ الطابور من أمامي ويطولُ من خلفي وبتُّ أقترب رويدًا رويدًا حتى أصابني الدور.

تناولتُ مِشنَّة الجريدِ وبها ستُّون رغيفًا من الخبز الطازج.

انزويتُ جانبًا ونثرتهُ قليلًا كي يجفَّ ثم عبأته في أكياسٍ بلاستيكية وعدت أدراجي ونشوةُ الانتصار تغمرني وأنا أقارن بين ذلك العهد والعهد السابق. والتي كانت تنتظر زوجتي قرابةَ الساعتينِ بالطابور والألفاظُ النابيةُ تتراقص على شفاه النساء والرجال المتراصين بالطابور وتحومُ حول أذنيها ثم تعود دامعة العينين خالية الوفاض.

فألتمسُ أكياس الخبز وأشم رائحتها وأنظر إلى الطابور والذي ما زال يطول ويتلوى مع علو الشمس ولكنه سلس إنسيابي دون تذمُّر أو شكوى فأحمدُ الله كثيرًا وأتمتم:

سبحان من حفظ هذا البلد. سبحان من حفظ مصر. فلتحيا مصر.

وظللتُ هكذا وهكذا حتى ابتلعني الشارع.

*****

"فرح عزوز"

تباشير الخريف تهل على قريتنا فتبدد آثار الحر المُشْبع بالرطوبة.

الشمس تستريح هنيهة على قمم الأشجار وهي تميل ببطء نحو الغروب. نسمات حالمة تداعب الزرع فينتشي وتتمايل الرؤوس ثملة يُمنةً ويسرة... وشوشة أوراق الذرة الجافة المتراصة على أسطح المنازل تبعث في النفس راحة كرفيف أجنحة الطير عندما يحط على حبوب القمح.

وفي الجُرْن كان لدى أمي ما يشغلها من جمع بقايا القش ولملمة أكوام الأزر المختلطة بالتراب استعدادًا للتذرية.

بعد أن قامت شقيقتي بنقل القش أعلى سطح المنزل ليتخذوه وقودًا لنار الفرن.



كان فرح عبد العزيز الشهير بين أقرانه "بعزوز" قد ولَّد لديَّ رغبة مُلِحَّة في أن أرافق صبية الحارة للوقوف على مراسم الفرح من أولها ابتداءً من زفة جهاز العروس في أثناء نقله من بيت العروس إلى بيت العريس محملًا على عربات الكارو. السرير النحاس ذو الأعمدة الطويلة الملفوفة بالورق الأبيض منعًا لخدشها وحفاظًا على البريق واللمعان والدولاب الخشبي والمراتب والأغطية.

وتنفرد البنات والنساء وهن يرتدين ثيابهن المزركشة والفضفاضة. يحملن طشت النحاس والأواني النحاسية على رؤوسهن وهن يغنين:

افرحي يا أوضة جيالك عروسة موضة

افرحي يا مندرة جيالك عروسة سُكَّرة

عاش أبوها وشنبه اللي ما حدش غَلَبَه

وبعد عصر ذلك اليوم تعتلي العروس كرسيًّا من الخيزران أعلى كنبتين من الخشب ومن أمامها فتيات يرقصن ويغنين: "يا عروستنا يا لوز مقشَّر تعالي"، والعروس مطبقة يومها على عجينة الحناء، وقد تجد من الفتيات من تهفو نفسها إلى الزواج فتغني وكأنها تتمنى قدوم العريس قائلة:

ييجي... ييجي

ييجي على المحطة... وأدبح له البطة

ييجي عند دارنا... وأدبح له حمامنا



وفي صباح يوم الدُّخلة كان معظم أهل القرية قد اطمأن إلى أن العريس سوف يستحم ويجمع "النقوط" في بيت عمه.

بينما تنفرد تلك المرأة المسئولة عن تزيين عرائس القرية بالغرفة ويحكم عليهن الإغلاق لتتولى كل شيء يخص العروس في تلك الليلة. ثم تلبسها الفستان الأبيض والطرحة وتداعبها ببعض الكلمات التي من الممكن

أن يحمَّر وجهها خجلًا وتتركها بعد أن تؤجر وتوصي أهل العروس بعدم نسيانها من حلويات الفرح.

وبعد صلاة العصر يزحف موكب عزوز صوب بيت العروس للاحتفال قليلًا ثم يعود بها على مرأى ومسمع الأهل والكل يتراقص على ألحان مزمار الحاج معاطي ودقات الطبول والصاجات وآلات النفخ النحاسية.

الكل يتمنى لو حظي برقصةٍ أمام الراقصة اللولبية والتي يبدو جسدها وكأنه خاليًا من عظم، من لديه المال ينال المراد، ومن لا يملكه يكتفي بالتحرش.

وأمام بيت العريس ينفض الحفل ويتفرغ الأهل لإطعام الضيوف.

بعد صلاة العشاء يتحرك الموكب ثانية إلى بيت العم... لجمع النقوط ليعود بعد ذلك محمولًا على أكتاف أصحابه يتقاذفونه فيما بينهم وقد يفعل به أحد أصدقائه مقلبًا كان قد نذره أن يفعله يوم زفافه... ويغنون وكأنهم يطمئنون العروس كي تهدأ وتقر عينها:

أهو جالك أهو...

يريح بالك أهو...

ويدخل العريس على عروسه والجميع ينتظرون بالخارج يتأهبون لرؤية المنديل.

*****

"خارج حسابات الزمن"

"قصة قصيرة جداً"

تجردت الشمس من خيوطها. احتقن وجه الأفق. وعلى شاطئ البحر كان مشهد الوداع قاسياً... حاول أن ينتزع منها اعترافا بحبه ولكنها راوغته. ليس هروباً منه. ولا إنكاراً للحب... ولكن غلبتها الأنانية وقررت أن لا تشركه في عذاباتها بعد أن لازمت الكرسيَّ. فهمَّ بسؤالها عن الأيام التي قضياها معاً فأجابته:

"لك أن تعدها أياماً سرقناها من الزمن".

*****

"الخريف"

بادر صديقه بسؤاله وهو يرتشف القهوة:

- ما لي أراك مهمومًا وأمارات الحزن تغشى محياك... ألست سعيدًا بقدوم المولود الجديد؟

- بلى ولكن ينتابني الخوف.

- ومن أي شيءٍ تخاف؟

- أنت تعلم أنني اخترت زوجتي لعدم إنجابها من زوجها الأول. ولكنها إرادة الله. والأولاد دائمًا لا يحبون زوجة الأب ولا يحبون أولادها. وقد لا يمهلني الأجل طويلًا لتربيته. وأخشى عليه من إخوته.

- لا تخف عسى الله أن يزرع محبته في قلوبهم.

*****

"بنت الأصول"

محمدٌ وهند... زوجان استمرت حياتهما هادئة حتى هبَّت عاصفة الغرور التي طفت على تفكير الزوج فطعنها بكبريائه وصلفه في كرامتها واستهان بالعشرة وهان كل شيء. تزوج بأخرى بعد أن كثر ماله وقوي بنيانه بحثًا عن التجديد وصغر السن والجمال.

تذرَّعتْ هند بالصبر وفوضَّت أمرها إلى الله.... ظلَّلت بجناحيها على أطفالها وقامت على شئونهم وهي على يقينٍ أنه سيعود إليها ذات يوم.

انطوت السنوات وعاد محمدٌ ولكن ليس كما تتمنى.... عاد مريضًا منكسرًا أصابته جلطة ضربت نصفه الأيمن وتنصَّلت زوجته الثانية وأنكرت عليه حقوقه وكفرت بحسن العشرة بينهما وفازت بماله وعياله.

استقبلته هند بنفسٍ راضيةٍ ولم تفكر في الثأر لكرامتها ولكنها قامت على شئونه واحتسبت الأجر عند الله.

وفي ركن قصيَّ من الغرفة يرقد محمد على سرير. شارد الفكر. حائر النظرات ولا يقوى على الكلام فتلمع الدموع في عينيه فتربت على كتفيه مواسية وجابرة خاطره.

بصوت هادئ نادت ابنتها نورا وسألتها أن تقوم على شئون والدها حتى تعود من عيادة شقيقتها بالمستشفى والتي اقترب موعد ولادتها.. ولكنها تجهّمت في وجهها وقالت: ليس لي أب؟

الأم بُهِتَتْ وصَرَخَتْ في وجه ابنتها قائلة: أنتِ ملزمةٌ بالقيام على شئونه لأنه والدك... ووالدك الآن عاجز، ومراعاة العاجز فيها فضل كبير وكرمٌ من الله.

نورا: "أين كان والدي وتركنا صغارًا ورفاقي يمنعونني ألعابهم ويعيرونني بما يتردد على مسامعهم بأن والدنا تركنا ليتزوج بأخرى؟

أين كان والدي وأنا طفلة في المدرسة ورفيقاتي يفتخرن بآبائهن ويهرولن مسرعاتٍ نحوهم فيستقبلونهم بابتسامة عريضة على محياهم ويحملون عنهن الحقائب والفرحة ترقص في عيونهن.. وأعود مشيًا على الأقدام. وحقيبتي المتهالكة تعلو ظهري وأستظل بجدران المنازل من حرارة الشمس الحارقة؟

أين كان والدي عندما كانت إدارة المدرسة تطلب حضور ولي الأمر فأخبرهم أنه مسافر؟

أين كان والدي عندما كنت أذهب إلى بيته الجديد وتستقبلني زوجته متجهمةً في وجهي وكثيرًا ما تنهرني كي لا أكرر الزيارة... ربما لا تريد أن تتذكر أن له زوجةً أخرى.. وهو لا يقوى على ردعها.

أين كان والدي عندما زُفَّت شقيقتي إلى زوجها دامعة العينين وكأنها يتيمة الأب وكان من الأحرى أن يسلمها بيديه لعريسها؟

أين كان والدي وأنت تكابدين العناء في مفترق الشوارع خلف أقفاص الفاكهة والخضروات من قبل طلوع الشمس حتى غروبها حتى تمخض عمرك عن زهرتين متفتحتين؟

أين كان والدي وأنا أنظر بعين الحسد إلى كل بنتٍ أراها بصحبة والدها؟

أين كان السند والعون ونحن في أمس الحاجة لنصائحه وتوجيهاته والأمان...نعم الأمان؟".

الأم: أأنت غاضبةٌ لأنه تركنا وذهب لأخرى؟ لا تحزني يا بُنيتي.. في بوتقة الهجران يُبعَثُ القَلبُ ويتطهر رغم ما به من ألم وانكسار.

الأب يسمع كل هذا الكلام وهو ممددٌ على سريره والألم يعتصره. حاول النهوض فسقط على الأرض، هبت نورا وساعدته على الجلوس. أدارت التلفاز كي يسمع الصوت ويتابع المناظر وهَمَّتْ بإطعامهِ فأمسك بيدها وتَشَبَّثَ بها وعيونه تترقرق بالدمع وكأنه يريد أن يعتذر عن الألم الذي سببه لها.

انتفضت.. شردت قليلًا.. استيقظت غريزة حب الأب بداخلها... أطبقت على يده بكفيها وصمتت قليلًا وكأنها تستعيد ما فقدته من حب وحنان.

*****

"ومن أولادكم عدوّ لكم"

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٦].

كلما سمع الحاج أحمد هذه الآية تفيض عيناه من الدمع وهو حزين فينظر إلى مُلكه من حوله وهو يخشى أن يرثه مَن ليس مِن صُلْبِه، المِسْبَحة بيمينه يُسبّح بها آناء الليل وأطراف النهار ويدعو ربه أن يكون المولود سليمًا مُعافى وأن يُمدَّ الله في عمره.

وجاء البشير: "مبروك يا حاج جالك ولد، يتربىَّ في عِزَّك إن شاء الله".

وكأن الفرحة ألجمت لسانه وَشلَّت أطرافه فلم يقوَ على كلامٍ أو قيامٍ فلبث في مقعده مشدوهًا وكأنه لا يصدق ما سمعه أو كأنه لا يصدق الدنيا التي تضحكه في بادئ الأمر ثم تبكيه مرارًا، ولما ذهب عنه السوء نهض من مكانه وأمر بذبح العجول وفاءً بالنذر.



- "يا رب يا ساتر"

ودخل الحاج بقدمه اليمنى. الوجه تلفه السعادة والبسمةُ مرتسمةٌ على شفتيهِ ولما استشعرت زوجته قدومه أزاحت دثارها وعدَّلت من وضعها وارتسم البِشرُ على مُحيَّاها وأمسكت بوليدها وضمته إلى صدرها وقالت: "سَمِّ الله يا حاج".

فتناوله الحاج بكلتا يديه وأذَّن في الأذن اليمنى ثم أقام الصلاة في اليسرى وهدهده وإذا بدموع كحبات اللؤلؤ تتدحرج على وجنتيه وقال:

"الحمد لله الذي وهبني على الكبر مُحمدًا".

وأبدل الله حزنهم سعادةً ليريهم أن بعد كل عُسرٍ يُسرا.

ومضت الأيام والشهور والأعوام وترعرع محمد كزهرةٍ يفوحُ أريجها في أرجاء البستان. كل طلبٍ له مُجاب. دلالٌ مفرطٌ حتى نشأ رخوًا لا يقوى على تحمل المسئولية. لم يهوَ عمل والده في التجارة وإدارة الأملاك. ولم يفلح في الحصول على شهادة تؤهله للعمل بأي وظيفة حكومية وجرفه سيل الشيطان ليلقى به في وادي الضياع. طرق بائعات الهوى وعاقرالخمر وَدأبَ على سهر الليالي والعودة قبيل الفجر مترنحًا مخمورًا. وحاول الأب إصلاحه دون جدوى. حرمه من المال فامتدت يده إلى ذهب أمه وأصبح فاشلًا عاطلًا ولصًّا أيضًا.



في ليلة العيد نظر الحاج إلى زوجته وكأنه يُذكِّرها بالأعياد التي مضت قبل أن يرزقهم الله الولد وكم فاضت عيونهم بالدمع وأولاد الأقارب والجيران يملأون البيت ضجيجًا وصياحًا يعبثون ويحطمون. وقد وهبهم الله الولد فهو العاطي الوهَّاب ولكنه يهدي من يشاء. وألقى برأسه على الوسادة وخلد إلى النوم.

التكبيرات تتلاقى بأذنيه. الله أكبر. الله أكبر ولله الحمد. نهض من فراشه متثاقلًا وهو يقول: "يا فَتَّاح يا عليم يا رزَّاق يا كريم"، ودعا لمحمد كثيرًا بالهداية ثم قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور.

انتهى من وضوئه وتهيَّأ لصلاةِ العيد مع الأقارب والجيران من أهل الحي ويردد بصوتٍ منخفضٍ أذكار الصباح كي لا يقلق زوجته التي قضت ليلتها بين آهات ودموع.

وفي الوقت الذي تودع فيه البيوت شَبَابها في حُلَلِهم الجديدة وعطرهم الفَّواح ليشهدوا صلاة العيد صفق محمد البابَ بشدةٍ وصَعَد درجات السلَّم متثاقلًا تفوحُ منه رائحة الخمر. ولما وجده أبوه على تلك الحال نَهرَهُ وهَمَّ به فدفعه ولده بقوةٍ فيرميه أرضًا مغشيًا عليه. وانكبَّ محمدٌ عليه ليُعينَهُ ولكنه لم يلبث طويلًا دون وعي حتى فارق الحياة.

وكما أبكته الدنيا مرارًا على ولده سُتبكي ولده مرارًا عليه.

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

[الكهف: ٨٠].

*****

"حكاية أمي والخالة هند"

"سطور من صفحات الذاكرة"

يُولَدُ الطفلُ بين أبوين ويكبر ويشتد عوده في كنف والده الذي يتخذه مثله الأعلى ولديه معتقدات راسخة بأن الأب دائمًا على كل شيء قدير.

وكان حال قريتنا آنذاك حال تلك القرى المجاورة. يقوم الآباء على شئون الحقل من حرثٍ وزرعٍ وريٍّ وحصاد. غُدوّهم مع شروق الشمس ورواحهم مع غروبها. لا يكادون يصيبون طعامهم وينهون صلاتهم حتى ينتبذوا مكانًا قصيًّا في ركن غرفةٍ مظلمةٍ ويعلو شخيرهم.

وكانت أمي هي ملاذي ومأمني ألجأ إليها وقت الشدة. فمنذ أن كنت على مقاعد الدراسة في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية في مدرسة القرية الوحيدة والتي تخرج فيها الكثير والكثير من أعلام القرية. كنت إذا فقدت قلمي الرصاص أو طلب حتى مُعلم الفصل دفترًا جديدًا أنطلق من فوري إلى ذلك الصدر الحنون وقلبي مطمئن أنني سأعود وطلبي مُجاب رغم أنها لم تكن تملك شيئًا.

النقود تكون شحيحة إذا لم يكن لدى رب البيت تجارة أو يكون موظفًا حكوميًّا.. وكان مصدر النقد آنذاك لبيتنا بيع الحبوب والغلال ومنتجات الألبان من حليب وجبن وسمن. حالنا حال أهل القرية جميعًا إلّا من اصطفاه الله ببسطةٍ في الرزق وأوتي سعة من المال.

كنت إذا عدت إلى أمي تتلقفني بدلالٍ وتترك كل ما بيدها من نثر الحبوب للطيور في حوش المنزل أو إطلاق سراح الكتاكيت من صومعتها لتنعم بالدفء تحت أشعة الشمس وقت الضحى وتصغي لمطلبي غير متذمرة ثم تصطحبني مترجلةً صوب دكان الخالة هند والعم أحمد. وقبيل الدكان بقليلٍ كنت أتسلل على أطراف أصابعي وأسترق السمع لمعرفة مَن الموجود بداخله. فإن كان العم عدنا من حيث أتينا وإن كانت الخالة يطمئن القلب وتنفرج الأسارير وأعود لأبشر أمي بوجودها فتذهب معي على استحياءٍ وحمرة الخجل تعطر محياها. ولكن كان لبشاشة الخالة ووجهها الضحوك الأثر الكبير في إزالة الرهبة وحفظ ماء الوجه. والتي مكنتها من استقطاب الزبائن من الدكاكين المجاورة. تراهم دائمًا جالسين على بصطة الدكان المطل على ميدان فسيح تحت ضوء القمر وفي الليالي المظلمة يتجمعون حول ضوء الفنار وتحوم من حولهم فراشات بلهاء إذا اقتربت قليلًا تحترق.

يتفكهون دائمًا بالنكات المضحكة أو سرد الحواديت الممتعة والتي تجعلك مرهف الحس والسمع كي لا يفوتك منها أي شيء. وكانت تسليتهم التهام الهريسة والكنافة والمشبّك الدمياطي وخاصة في موسم جني القطن، وبعد جلسات السمر ينصرف كلّ إلى غايته.

طويت السنوات ومضي قطار العمر وبات هذا الجيل في رحاب ربه ومن بينهم أمي وظلت الخالة امتدادًا لهؤلاء نستنشق من عبقها وتذكرنا بالذي كان بيننا..

ولما بلغنا خير لحاقها بالسابقين اجتررت ذاكرتي وعدت بعيداً إلى تلك الأيام لأسترجع ما كانت تفعله مع أمي..

رحم الله الخالة وكل من لحقتِ بهم. فهي إن غابت عن العيون فسيبقى لها في قلبي من الحب الكثير.

❋❋❋❋❋

د. مجدي سراج

"المسطول"

السماءُ صافية.

القمر ينظر إلى النجوم وكأنه يريد البوح لها بمكنون صدره.

الأرض تُرخِي أذنيها لاستراقِ السمع.

القريةُ رافلة في النعاسِ.

وفي الجانب الشرقي يكمن مقهى السعادة تنبعث منه أضواء خفيفة تبدد الظلمة من حولهِ. رُوَّادُه ممَّن تمرَّدوا على نظام القرية التي يشقى أهلها نهارًا ويخلدون إلى النومِ ليلًا ليريحوا أبدانهم من عناء يومٍ طويل وسط المزارع والحقول.

كان محمد على غير عادتهِ تلك الليلة فلوى لجام الذاكرة وراح يستعيد أيام الشباب. ويستعيد نصائح صديقه بأن الحشيش يجيبُ السعادة والمتعة الزوجية فلقتهُ الأماني بليلةٍ حمراء بعد أن يَغطّ الأولاد في نومهم... وفي ركنٍ هادئ من المقهى جلس منتشيًا ومن أمامهِ الشيشة ينظر إليها متأملًا والماء يقرقر بداخلها مع سحب الأنفاس وكلما اشتد السحب زادت القرقرة. وبين الفينة والأخرى يجلجل صوته مناديًا النادل: "حجر معسِّل وفحم زيادة" ثم يدسّ يده بين طياتِ ملابسه ليخرجَ لفافةً يقضمُ منها بطرفِ أسنانهِ ثم يلقي بها في النار فيتصاعد الدخان على شكل حلقاتٍ في سماء المقهى وسرعان ما تتلاشى.

النادل يراقبُ من بعيد وهمَّ بنصحه أن يُكفَّ عن التدخين كي يعود إلى بيته واعيًا ولا يكرر ما حدث في الليالي السابقة حيث طرق أبواب الجيران وأصبح مضجعهم.. ولكنه صرخ في وجهه قائلًا:

- أتحسبني مسطولًا؟ أنا باستطاعتي أن أُدَخّن قَرْش حشيش كامل ولا يدور رأسي.

واستمر في عناده ومكابرته وما إن وصل إلى الحجر السادس حتى ثقُلَ لسانه واحمرّت عيناه فلملم أشلاءه وانسحب بهدوءٍ كي لا يفتضح أمره... وعندما أدار ظهره للمقهى كانت نسمة حالمة تمسحُ وجَه القرية الناعس فلعبتْ برأسهِ فانتشى وتعالت ضحكاته. وسلك طريقه لا يلوى على شيء. حتى لمع شيء أمامه فَجَفِلَ وما هو إلّا ضوء القمر عند ملتقى الشوارع فَحِسَبَهُ لُجَّةً وشمَّر عن ساقيه واستجمع قواه وقفز بكلِ ما أوتي من عزمٍ كي لا يبتلَّ ثوبهُ بالماء.

وأمام البيت وقف ماثلًا يفتشُ عن مدخله ويسألُ نفسهُ: "هل المدخل قبلي أم بحري؟ ويدير ظهره ويتخذ وضع الجهات الأصلية "شمال. جنوب. شرق. غرب" ويمدّ ذراعيه أمامه تارةً وجانبهُ تارةً أخرى ويُعَدّلُ من وضعة... ولكن أين مدخل البيت؟ آه أخيرًا تذكرت.... مدخل البيت بحري ولكن ما أقفُ أمامهُ الآن قبلي.

ويستعيدُ نصائح صديقه ثانيةً عندما يشتد حر المصيف يمازحهُ قائلًا: يدك بيدي لنحولَ مدخل البيت بحريًا كي تنعم بالنسيم العليل.....

أين أنت الآن يا صديقي العزيز لتنقذني مما أنا فيه وتريحني من عناء البحث عن المدخل.

وفي أوج تفكيره وانشغاله وعلو صوته أحيانًا مع هدأة الليل. يدوّي صرير الباب فيشرخ الصمت الرابض بجوار المدخل في هدأة الليل وسكون الشوارع وإذا بزوجته ماثلةً أمامه وقد سَئمتْ من أحوالهِ.

نهرته ثم سحبته داخل البيت ليرقد بجوار أطفاله ويزاحمهم في سريرهم.



"عيد الزمن الجميل"

جيش الظلام الرابض على مشارف القرية يتأهب لغزو شوارعها بعد أن يبتلع الأفق قرص الشمس ويأتي العيد فجأةً يا سادتي فتنتفض القرية، ويخاصم النوم أجفانها، وتشعل الأمهات المصابيح في الأماكن المظلمة كي لا تسكنها الشياطين بعد أن صُفِّدتْ طيلة شهر رمضان، وتخرج الصبايا من خدورهن ويقمن بنظافة البيوت وترتيبها وكنس الشارع ورش الماء أمام البيوت.

أمْسِك بيد أمي وهي تجوب الشوارع في جنح الظلام تحمل على رأسها آنية بها حبوب من قمح وأرز تطرق الأبواب في خفية وإذا سألتها:

- لماذا لا نفعل ذلك نهارًا.

ترد بعفوية قائلة: "الليل ستَّار".



الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلّا الله.

الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. ولله الحمد.

تطرق أصوات التكبيرات أبواب أُذنَّي فتطربني وتدغدغ مشاعري فأتعجَّل من أمري وأودّ لو أن لي جناحين لأطير إلى المسجد كي لا يفوتني ذلك المشهد العظيم. وتُقام الصلاة بسبع تكبيراتٍ في الركعة الأولى وخمسٍ في الثانية ثم يعتلي الإمام المنبر ويجلجل صوته في سماء المسجد يحث الناس على التواد والتراحم ويذكّر بموتاهم الذين رحلوا عن دنيانا ولم

يشهدوا معنا ذلك العيد فيمس كلامه شغَافَ القلب وتجدهم بكل شفافية كأنهم ملائكة يتصافحون وسرعان ما ينخرطوا في الحياة ويعود كلّ إلى طبيعته. وينتشر المصلون جماعات وفرادى، منهم من يذهب لزيارة الموتى والسلام عليهم، ومنهم لبيوتهم لجبر الخواطر النساء والأطفال بعد مصابهم الجلل.



البيوت مُفتَّحة الأبواب، والناس يتزاورون ويتصافحون ويأكلون طعام بعضهم. كعك. بسكويت. فول سوداني وترمس. تدخل بيوتًا للمرة الأولى فيحلفون أن تتذوق كعك عيدهم وتخرج ويدخل غيرك وتستمر ملحمة الحب طوال اليوم.



يلتف جميع أفراد العائلة حول المائدة وعلى صدرها رب البيت، البهجة تغمرهم ورائحة الطعام تداعب الأنوف وتُسيل اللّعاب. أطباق شهية من الأرز. الفتَّة والكُفتة والتي تعد مظهرًا من مظاهر الاحتفال بالعيد وقلَّما تجد بيتًا خاليًا منها في ذلك اليوم. يأكل الجميع وينصرف كلٌّ إلى غايته وبعد جمع العيدية من الأعمام والأخوال ننطلق إلى الميدان معنا نقود نشتري بها الألعاب ونشرب المثلجات وجيوبنا محشوة بكعك العيد ندفعه إلى العم أحمد الذي يحثنا بصافرته ورقصاته أمام أرجوحته التي نصبها قبل العيد بيومٍ أو يومين أن ندفع بكل ما لدينا من كعكٍ وأشياء أخرى بل نذهب ونعود إليه بالمزيد ثم ننصرف لركوب الدراجات وممارسة الألعاب

الأخرى ونوفي بالنذر ونذهب لمقام أولياء الله الصالحين ونشعل الشموع داخل الأضرحة.



الشمس في كبد السماء ويرتفع أذان الظهر. ويجوب عبد الستار شوارع القرية بيده طبلةٌ ينقر عليها من آنٍ لآخر يسأل الناس أجر ما نقر لهم على طبلته وهو يجوب تلك الشوارع المظلمة وقت السحر يحث الناس على النهوض من النوم وتناول سحورهم.

وتستريح الشمس من عناء ذلك اليوم على أغصان الأشجار.

ونعود إلى البيوت بعد يوم حافل جيوبنا فارغة وبطوننا خاوية ومحفور بجدران الذاكرة أشياء نتلذذ بسردها من آن لآخر. يحدونا الأمل أن نفعل ما فاتنا في ذلك اليوم في العيد القادم. نأكل ما تبقى من أرز.



"الأراجوز"

الشمس مالت نحو المبيت واستعد النهار للرحيل. نسماتٌ حالمةٌ مسحت وجه القرية الممتدة على ساحل النهر من الناحية الشرقية.

الطيور تغرد وترفرف بأجنحتها ثم تعود إلى أوكارها فوق أغصان الشجر، غيماتٌ تبعثرت على صفحات السماء. بيضاء كسحب الصيف وداكنة تنذر بهطول المطر.

وقف بيننا يلهث ويلتقط بعض أنفاسه ثم هتف:

- سمعتم آخر الأخبار؟

أجبتُ ورفاقي بلسانٍ واحدٍ:

- ما هي؟

قال صارخًا:

- الأراجوز وصل.

انطلقنا من فورنا إلى حيث استقر مسرح الأراجوز في مفترق شوارع الحارة المجاورة. انضممنا لصفوف الصبية الذين يجلسون في خشوعٍ منصتين يترقبون بداية العرض. ويجول رجلٌ طويل القامة، كث الشارب نحيل الجسد بين الصفوف لجمع النقود، ولاح الأراجوز بالطرطور الأحمر وبيديه صاجات معدنية صغيرة ومعه زوجته نفوسه ذات الفستان الأبيض والشعر المجدول.

أُفتتحَ العرض بالأغنية الشهيرة وبصوت الأراجوز المميز والذي يشد الانتباه:

يا حضرة الأراجوز قل لي. نعم يا عمدة عاوز إيه.

منين يروحوا المتولي. أمدح نبينا وأصلي عليه.

اللهم صلِّ عليه.

تتعالى ضحكات الصبية ويشتد التصفيق والصفير والتهليل ليختلط بضحكات النسوة اللائي يجلسن على المصاطب ويسندن ظهورهن لجدران المنازل.

وعن يميني كانت تجلس مُتربعةً. وجهها أبيض مشرئب بالحمرة وضفائر شعرها سوداء لامعة وكأنها خرجت لتوّها من حمامٍ ساخن، دسَّت يمناها بين ثنايا ثوبها وأخرجت بضع حبات من الكراميل المغطى بالسكر الناعم وتفوح منه رائحة النعناع وألقت ببعضها في فمها وأخذت في الاستحلاب مصدرةً أصواتًا سال على إثرها لعابي فازدردت ما بقي منه. ثم التفتت ناحيتي وكأنها أحسَّت باشتياقي إلى بعض حبات الكراميل ثم قالت:

- تأخذ لك واحدة؟

فأومأت برأسي موافقًا. ثم غافلتها وطبعت قبلة على خدها الأيسر ولكنها لم تُعِرْ ذلك اهتمامًا رغم ما حدث بداخلي من أشياء لم أشعر بها من قبل.. نهضت واقفة فبدت حافية القدمين.

سألتها: إلى أين؟

- سأذهب إلى بيت خالتي شربات. لأخبرها أن أمي تريدها لتساعدها في بعض أعمال المنزل وسأعود مرة ثانية.

نظرت إليها ولسان حالي يقول: "والله أنت اللي شربات".

الصبية منصتون واجمون. يستمعون بشغف لقصص الأراجوز عن الحب والتي يُستشفُّ منها العبرة والفائدة. تعقبها القصص الاجتماعية والنصائح الوقائية والإرشادية فيهلل الجمعُ ويصفق.

وفي نشوة الفرح تتلمس يدٌ حانية شعري فألتفت إليها وإذا بها أمي. بحثت عني كثيرًا حتى اهتدت إلى مكاني. انتابني الخوف وتوقعت عَلْقةً ساخنةً. ولكنها ابتسمت لِتُذْهِبَ عني ما أصابني. وسألتني عن الأشياء التي كلفتني بشرائها من الدكان فأخبرتها أنني دفعت النقود لصاحب الأرجواز كي يسمح لي بمشاهدة العروض... لم تنهرني ولكنها دسَّت يدها في صدرها وأخرجت كيسًا قماشيًّا يعلوه خيط سميك إذا سحبته أغلق عنق الكيس وأخرجت نقودًا أخرى دفعت بها إليّ وفركت أُذنَّي بين أصابعها آمرةً أن أذهب إلى الدكان وأعود إلى البيت مسرعًا قبل أن يعود أبي وماشيته من الحقل ويتفقدني. انطلقت مسرورًا إلى الدكان وأعادت هي الكيس القماشي إلى صدرها مرة ثانية.

*****

"سعيدة"

صباح يوم الجمعة.

الناس نيام يتدثرون في شتاءٍ باردٍ وريحٍ عاصفٍ. تصفق الأبواب وتقذف بعبوات بلاستيكية فارغة من سطوح المنازل.

السماء غابت زرقتها خلف غيوم كست صفحاتها. وحجبت الشمس وضياءها.

صوت صارخ يقض مضجع الصمت الرابض في أركان الحارة.

امتلأت النوافذ بالضفائر يتتبعن الصوت ويقفن على مصدره.

إنها سعيدة الشحاذة.

امرأة يبدو وكأنها أتمت العقد الرابع، طويلة ممتلئة. ترتدي جلبابًا باليًا يلوح من خلفه ظهر وأكتاف عارية يتشبث بيمناها طفلٌ لا يتجاوز عمره الثامنة. ومن الكتف الآخر يتدلى كيسٌ قماشيٌّ تلقى فيه ما يجود به أهل الكرم. تستدر العطف وتلهب المشاعر بكلمات يرق لها القلب وتلمع في المآقي الدموع... وهي تتغنى بصوت رخيم.

إلهي ما يجوع لك كبد.

إلهي ما يعرى لك جسد.

ويردد الطفل: كريم يا رب.

❖ ❖ ❖

كنت آنذاك طالبًا بالثانوية العامة.. اغتربت مع أشقائي. تركنا قريتنا وأقمنا بالمدينة لظروف المدارس والجامعات... وكانت تجربة الثانوية العامة تجربة عصيبة. فقد زرع الأهل بداخلنا أنها كالصراط. ومنه إما أن تكون شقيًّا أو سعيدًا.

ولإيماني بأن الصدقة يتداوى بها المرضى فهي أيضا ربما تكون سببا في التوفيق والنجاح. قبضت على قروش بسيطة ادخرتها من مصروفي. قفزت درجات السلم واندفعت مهرولا في الشارع غير مبالٍ بقسوة البرد ومنحتها تلك القروش. فرفعت أكفها إلى السماء داعية:

"إلهي ينجحك وما يخسرك".

وكانت تلك الدعوات بردًا وسلامًا على قلبي الوجل....

أحسستها كدعوات أمي في ذلك اليوم والتي تصلني آثارها رغم بعد المسافات. عدت هادئًا مطمئنًا وكأنني قد لمست النجاح فعلًا.

❖ ❖ ❖

مع نهاية الأسبوع التالي غادر الأشقاء إلى القرية وآثرت البقاء وحدي.

استبد بي الجوع فهرعت إلى المطعم الكائن بالشارع الرئيسي والمقابل لمدرستنا لأحضر بعض الطعمية والمخلل.

كان مطعمًا شعبيًّا يقدم الفول والطعمية والكشري وأفتتح به قسم جديد للمشويات... لم يكن لدى سوى عشرة قروش هي كل ما أملك حتى عودة الأشقاء.

وسط طابور طويل اتخذته حتى يصيبني الدور. اقتربت قليلا من مدخل المطعم. وهالني ما رأيت.

إنها سعيدة التي هرولت من خلفها ذات يوم كي أمنحها ما تبقى من مصروفي، سعيدة الشحاذة. تجلس أمام طاولة في ركن قصي من المطعم ومن أمامها طبق من الأرز المفلفل اللامع تعلوه دجاجة مشوية كاملة. الرائحة زكية تسيل اللعاب..

هفوت إليها ولكنني كبحت جماح نفسي عندما تأملت العشرة قروش بيدي وبصوت ضعيف مهزوز طلبت ساندويتش طعمية وبعض المخلل.

عدت أدراجي هائمًا شارد الفكر.

عدت إلى أيام القرية حيث يهبط علينا كل صباح ثلة من المداحين يضربون الدفوف بأكف غليظة وأصابع طويلة لَفَحَتها الشمس. يمدحون الرسول ويشوِّقون الناس لزيارته ويؤجرون على أفعالهم بأنواع من الحبوب كالقمح والأرز وكيزان الذرة.

وقبيل الغروب يولون أدبارهم للقرية. يسحبون حميرًا تحمل على ظهورها أرزاقهم...

أفاقني من شرودي صوتٌ لرجل هزيل مبتور الذراع كاشفا عن عاهته. ويردد كما كانت تفعل سعيدة:

"حسنة قليلة. تمنع بلاوي كثيرة. عاجز يا أسيادنا.

وهنيئا لك يا فاعل الخير".

نظرت من حوله فلم أجد طفلًا ليردد كريم يا رب.... بيدي اليمنى تلمست جيوبي وإذا بها خاوية وبيسراي ساندويتش الطعمية... تقدمت نحوه ومنحته إياه.

وعدت كما كنت أشد جوعا من ذي قبل أبحث عن كسرات خبز جافة في قاع القفة أصيب منها مع قليل من البصل الحار.

وقد ازداد إيماني إيمانًا بأن الشحاذة فنون وجنون.

*****

المناقشة

في صباح ذلك اليوم والذي طالما حلمت به.. كنت على غير عادتي. قلقًا إلى الحد الذي لا يسمح لي باختيار ملابسي وربما يخرج كلامي عن طور اللياقة.. اختلقت الأعذار للهروب من الحضور.. ترى ما هو السبب؟

إنه الخوف. نعم الخوف الذي يتملكني عندما يكون الحدث يخص أحد أبنائي.

رنين الجرس يعلو.. يا إلهي.. من ذا الذي يهبط علينا الآن؟!

إنها المقادير.. شركة الغاز أرسلت عمالها لإنهاء ما تبقى.. اتخذتُها ذريعة لأبقى بالبيت حتى ينتهوا من أعمالهم.. ولكنها شجعتني ودفعتني للخروج وستلحق بنا.

دخلت القاعة.. الحضور قليل بسبب تداعيات كورونا والإجراءات الاحترازية.. الظلام يخيم على أرجاء المكان ووميض الفلاشات يشق صدره لتوثيق الحدث بصور مبهجة.

تقدمت قليلًا.. لمحتها واقفة خلف المنصة وفي الزاوية المقابلة لجنة المختبرين.. ثلاثة من أساتذة كليات الطب.. على اليمين أستاذة حلت ضيفة من خارج الإقليم.. وعلى الشمال أستاذة من بني جلدتنا. والأوسط أستاذ طويل القامة خمري اللون.. باسم الثغر وخفيف الظل والذي يتولى الإشراف كاملا على الرسالة.

افتتحت الجلسة وبدأت الطالبة بشرح ملخصٍ للرسالة بالصوت والصورة عبر شاشة مثبتة في الركن الأيمن.. وكاميرا الفيديو منتصبة في صدر القاعة. تلتفت يمينا ويسارا وتظهر ما في الساحة والأركان.

أسلوب الإلقاء أبهرني وأبهر الحضور من أقارب وأصدقاء وزملاء. ممرضون وممرضات وأطباء منهم حملة الماجستير والدكتوراه..

كلهم ممن عملت معهم خلال السنوات الثلاث الماضية.

أسعدتني كثيرًا وهي تطوع لسانها لتنطق الإنجليزية كما لو كانت لغتها الأم حتى خلتها مذيعة في إحدى القنوات الإخبارية الأمريكية.

بل بلغ بي الزهو والفخر حتى قارنت بينها وبين (أوبرا وينفري).

انتهى سرد ملخص الرسالة واستعد الجميع للمناقشة.

أمسكت أستاذة اليمين بزمام الأمور وشحذت لسانها وبدأت بإلقاء الأسئلة والاستفسار عن بعض القوائم والجداول. تقسو أحيانا وترفق أحيانا والطالبة تجيب وتدافع وتتلعثم ويحمر وجهها وأحيانا تصمت مؤثرة الصمت في عدم وجود الجواب.. فتنتشلها الأستاذة من براثن الخوف وتدللها منادية: ((يا بنيتي))

استبد بي الخوف مرة ثانية..

تطلعت في وجوه أشقائها فحالهم من حالي.. لويت عنقي للخلف.. وجدتها.. الدموع لامعة في مقلتيها وأنفها راشح خلف النقاب. خفقان قلبها يدوي في أذني.. خفقان لا تصلحه حبوب (الإندرال).. فأنا أعرفه جيدا.. فهي نصفي الآخر والذي لن أكتمل من دونه.

شددت وثاق قلبي في المقاعد المجاورة كي لا ينفلت من صدري..

والحوار قائم بين اللجنة والطالبة وحمى الوطيس حتى كدت أصرخ: رفقا أيها السادة.. إنها ابنتي، ولكني خشيت إزعاج الصمت الرابض خلف المقاعد والأركان يسترق السمع ويستمتع بالمشاهدة...

انتهت المناقشة واطمأن المشرف لرحابة صدر أعضاء اللجنة وقرأ لغة وجوههن الباسمة.. سمى الله وحمده كثيرا وأثنى على سيد الخلق.. ثم تلا قرار اللجنة:

((بعد الاطلاع على الرسالة المقدمة من الطالبة والاستشهاد بجموع الآراء من السادة المختبرين أعضاء اللجنة.. قررت اللجنة منح الطالبة درجة الماجستير.. كما أوصت اللجنة بتعديل بعض الملاحظات وترتيبها وتصحيح بعض الأخطاء قبل تسليم النسخة النهائية إلى إدارة الكلية)).

كما أثنى كثيرا على أسلوب الطالبة والجهد المبذول.

عمت الفرحة أرجاء المكان وازدادت حدة التصفيق.

التقطت الصور التذكارية بين الطالبة والأساتذة بعد ارتداء الأرواب السوداء اللامعة والتي يزين صدرها شريطان من قماش وردي لامع.. تقدمت إليهم.. شكرتهم وأخبرتهم أنها ابنتي وكذا فعلت أمها.

الدمع لامع في العيون.. فنحن قومٌ الفرح والحزن لهما الأثر البالغ على العيون والأنوف..

تركت القاعة وشققت زحام المرضى.. على اليمين وجوه ضاحكة مستبشرة يحذوها الأمل بالشفاء من ذلك المرض الذي إذا ذكر اسمه وجلت قلوبهم وكبروا الله واستعاذوا به.. وعلى الشمال وجوه أرهقها اليأس وأنهك أبدانهم المرض.

واصلت طريقي وحديث يدور بيني وبين نفسي: "لقد كسب هؤلاء المرضى اليوم طبيبة تتمتع بإنسانية تفوق الحد.. طبيبة اعتادت على الطبطبة وجبر الخاطر.. طبيبة قد يكون نصيبها من الدعوات أكثر بكثير من نصيب المال"

فتلك هي الرسالة... نعم هي الرسالة.

*****

"حلاق الموضة"

الثامن من ذي الحجة - يوم التروية - يوم من الأيام التي أقسم الله عليها في سورة الفجر بقوله تعالى:

﴿ وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② ﴾ [الفجر: ١-٢]

لست حاجًا ولا مضحيًا.. اليوم قائظ.. الشمس حامية والرطوبة خانقة.. العرق يسيل خطوطا فوق جسدي.

من بعد صلاة الظهر توجهت صوب الحلاق لآخذ بعضا من شعر رأسي تزينا للعيد الذي لاحت مباهجه في الأفق من تكبيرات عبر المآذن.

ورواج التسوق وثغاء الأغنام التي أعدت للأضاحي.

في الصالون.. هالني ما رأيت! ثلة من الشباب متراصون على كراسي الانتظار.. يسندون ظهورهم للحائط وبأيديهم هواتف باهظة الثمن يسحبون شاشاتها صعودًا وهبوطًا يتصفحون ويراسلون عبر رسائل التواصل الاجتماعي ((الواتساب.. والفيس بوك والانستجرام))

وفي الواجهة ثلاثة كراسي يشغلها ثلاثة نفر.. من أمامهم مرآة كبيرة لامعة تعلوها أضواء بيضاء ساطعة.. وخلف كل كرسي حلاق بيمينه مقص وبشماله المشط يتأمل الرأس الذي أمامه منتظرًا شارة البدء لرسم اللوحة الفنية ليزهو بها الشاب مختالا بين أقرانه.

انتبذت مكانًا قصيًا في ركن الصالون أستمتع ببرودة المكيفات..

ذهب الإجهاد وجف العرق.. وجلست أرقب الزبائن والبسمة تعلو محياي انبهارًا بهؤلاء الشباب ومهارة الحلاقين في متابعة الموضة وجلب أغرب قصات الشعر وتزيين اللحى عبر الإنترنت لمجاراة رغبات الشباب.. وباتوا ينعتون بمصففي الشعر "hair stylist"

صبي يتخطى عمره العاشرة يهديني ابتسامة ويناديني (عمو) فأهديه ابتسامة مع رفع الحاجب.. ويحوم من حولنا كالفراشة بخفة ورشاقة لتلبية الرغبات..

يغالبني التمني وأنا أتابع حركات أيدي الحلاقين وهي ترسم بالمقص والموس والماكينة بأن أفعل مثلهم.. ولكن هيهات.. فمثل رأسي لا يصلح لتلك القصات (وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر)

يختلط أزيز مجفف الشعر مع القرآن الذي يتلى عبر التلفاز.

((سورة يوسف))

القراء يتغنون بها.. تسمعها في كل مكان.. وسائل المواصلات.. المحلات التجارية وكأنهم اتخذوها تميمة لجلب الرزق.

ساعة من الانتظار مضت حتى أصابني الدور.. ارتقيت الكرسي وسألني الحلاق فقلت تخفيفًا بمقص، فلم يلبث إلا دقائق معدودة حتى انتهى من قص الهواء والشعر معا.. ولكي يرضيني عرج على تنظيف شعر الأنف والأذن فشكرته وانصرفت.

وفي الشارع.. الشمس مالت قليلا ولكنها ما زالت ساطعة.. الحر لافح والرطوبة خانقة..

ولّيت وجهي شطر المسجد المقابل فلمعت صلعتي تحت شعاع الشمس وأحسست بلسعة خفيفة فبسطت يدي عليها وآويت إلى الظل.

*****